الباب الثامن عشر

الفصل الأول

فى انحياز الخديو الى الانكليز

ذكرنا ان الخديو رفض الرجوع الى عاصمة بلاده وتوجه بعائلته ومن معه من الذوات وعسكر الحرس الى سراى رأس التين فى ١٥ يوليه سنه١٨٨٢ فلما وصل الى السراى استقبله الاميرال سيمور ومن معه من ضباط الانكليز فى فسحة السراى الكائنه على راس السلالم ثم امر باحاطة السراى بغفراء من العساكر الانكليزية(١) وقد قرر الاميرال سيمور وقنصل انكلترا الجنرال والمستر كولفن تعيين المستر أورستبتين ترجمانا بينهم وبين الخديو وكان من واجباته أن لايفارق السراى وأن يراقب كل مايجرى فيها ويقدم به بيانا وافيا وكان يتناول الطعام مع الخديو فى الصباح وفى المساء

وهكذا صار الخديو تحت رحمة الانكليز يأتمر بأمرهم وينفذ أرادتهم بعد انحيازه اليهم والأمر لله من قبل ومن بعد

تحصينات كفر الدوار

بعد أن تجمعت العساكر فى كفر الدوار وعادت من فرارها صار انشاء الاستحكامات وتعزيز المواقع الحربية الممتده من عزبة خورشيد الى كفر الدوار(٢) وقد انشأ فى كفر الدوار استحكاما من ترعة المحمودية الى ارض الملاحة وخندقا عرضه اربعة أمتار

وقد جعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية الى الملاحة ايضا وجعل ماوراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع محصنة بمدافع الكروب وكذلك التلال الموجوده بين المحمودية وسد أبو قير وقد تم

---

(١) وضع الخديو نفسه تحت حماية القوات الانجليزية واظهر انحيازه لها وسارع هو وشيعته الضئيلة بتهنئتها ، ونتيجة لذلك انقسمت البلاد تجاه العدو إلى معسكرين ، الرافعى : الثورة العرابية ص٣٦٦ .

(٢) قام محمود فهمى باشا بتنفيذ بناء بعض هذه الاستحكامات بنفسه ، وخطط البعض الآخر على الأرض بطلب من ضباط اركان الحرب تنفيذه .

محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٢٠ ملف رقم ١٧٩ ، وكانت خطوط الدفاع فى هذه المنطقة ثلاثة يبعد كل واحد عن الآخر مابين اربعة آلاف وخمسة آلاف متر ، وكان بين كل خطين خندق عمقه ١٥ قدما .

اجراء هذه الاعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى[١] ورجال الهندسة الحربيين ومساعدة ٥٠٠٠ رجل من الاهالى من مديريتى الغربية والمنوفية ومديرية البحيرة[٢] .

ترعة المحمودية

قد صار استحضار الاخشاب اللازمة وجرى سد ترعة المحمودية لمضايقة الانكليز فى الاسكندرية وصار تحويل مياه النيل على الاراضى المالحة الكائنة بين المحمودية وسد ابو قير والرمل لغرض احيائها واصلاحها بماء النيل ومنع العدو من الانتفاع بها فى ميادين الحرب[٣] .

مركز ابو قير

قد سار اللواء خورشيد باشا طاهر من رشيد بالالاى الرابع حكمدارية محمد بك أمين وتبوّء نقطة ابو قير لمنع هجوم الانكليز من تلك الجهة .

واقعة ابو قير

وفى ٢٦ يوليه سنه١٨٨٢ ورد تقرير من خورشيد باشا طاهر قال فيه كما يأتى :

ظهر العدو من جهة الرمل بأورطتين بيادة واورطتين سوارى ومعه مدفعان يحاول وضعهما على ربوة على بعد الف وخمسمائة متر من المستحكم الطبيعى الموجود امام عساكرنا فقابله كل من أحمد افندى البيار البكباشى ومصطفى افندى حسان البكباشى بأورطتين من البياده واورطتين من السوارى وارسل خبرا الى خورشد باشا المشار اليه فاسرع بثلاث بلوكات من السوارى ووصل ميدان القتال فوجد الميدان كثير الرمال فأبطل

(١) بعد ضرب الاسكندرية وانسحاب العرابيين منها عين محمود فهمى رئيسا لعموم أركان حرب الجيش المصرى وقد استطاع محمود فهمى اعداد خطة للدفاع عن البلاد أوضح فيها انه عند بدأ العمليات العسكرية يجب قطع المياه العذبة الموصلة الى بورسعيد من شمال القنطرة ، كذلك سد قناه السويس مع سد ترعة الاسماعيلية وحجز مياها ولكن لم يؤخذ بخطته . انظر محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٨ ملف٥٣ /د/ ٣

(٢) أحكم عرابى تحصين مواقعه فى كفر الدوار مما اعاق تقدم القوات الانجليزية فى هذه المنطقة وصد هجومهم المتوالى عليها حتى اضطرت الى الانسحاب اكثر من مرة أمام بسالة الجنود المصريين بقيادة طلبه عصمت .

(٣) سد محمود فهمى ترعة المحمودية بالقرب من كينج عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته كما اشار بسد ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الاسماعيلية والسويس وبورسعيد ، وبسد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للانجليز .

ضرب نار البياده وفتح السوارى فى هيئة (جرخاجية) وهجم على العدو وأوقع به حتى الجأه على التقهقر خلف الربوه التى كان يحاول وضع المدفعين عليها وهناك اختفى العدو فى النخيل وولى منهزما وقد اصيب حصان من خيلنا ولم يستشهد أحد من عساكرنا وكان ابتداء المحاربة فى الساعة الأولى من النهار وانتهائها فى آخر الساعة الرابعة فمدة القتال ثلاث ساعات ونصف ولم نعلم خسائر العدو لرفعها اولا باول من الميدان .

واقعة عزبة خورشد

وفى ٢٧ يوليه[١] ظهر قطار مقل لعساكر انكليزية أتيا من سكة القبارى فلما قرب من المقدمة على بعد (١٥٠٠متر) اطلق عليه البكباشى أحمد افندى حشمت مدفعا عظيما من نوع كروب فأصاب الوابور . وأوقف سيره فنزلت العساكر الانكليزية وتقدمت الى الامام بقيادة الجنرال (اليزون) الذى رتب جيشه على اربع فرق تحت حكمدارية الميرالاى (طوسون) والماجور (سترونج) والقبودان (ادج) فى صورة قلب وجناحين فلما قربوا على بعد ٨٠٠ متر اشتبكوا فى القتال مع اورطة محروس افندى البكباشى واورطة المستحفظين حكمدارية محمد افندى فوده الذى اظهر شجاعة فائقة ولما اشتد القتال من الطرفين تقدم الرجل الشجاع أحمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه اورطة سليمان افندى تعليب وارطة رزق افندى حجازى البكباشى وأصلوا العدو نارا حامية ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الاى برنجى سوارى حكمدارية أحمد عبد الغفار بك وحرك الأورطة جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلوا بالسلاح الأبيض وجها لوجه ولما اظلم الليل وضعفت قوة العدو قفل راجعا متقهقرا وعسكرنا فى اثره تضربه حتى حال الظلام بين الفريقين[٢] . وكان ابتداء القتال فى الساعة التاسعة نهارا على الحساب العربى وانتهاؤه فى منتصف الساعة الثانية ليلا فمدة القتال ستة ساعات[٣] .

---

(١) معركة عزبة خورشيد حدثت فى ٥ اغسطس سنه١٨٨٢ وليس فى ٢٧ يوليو كما ذكر عرابى .
محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٢ ملف ٢٨ تلغراف من عرابى إلى وكيل الجهادية .

(٢) من المرجح أن ماقام به الانجليز من قتال ضد المصريين عند كفر الدوار كان القصد منه توجيه اهتمام عرابى الى تلك المنطقة وخديعته بالبقاء بها توقعا لاستمرار الهجوم الانجليزى عليها حتى تتمكن القوات الانجليزية من التغلغل تدريجيا الى منطقة القناه والتقدم منها صوب القاهرة خاصة وأن احتلال القاهرة من الشرق ايسر من اختراقها من الغرب نظرا لوجود النيل غرب القاهرة ، وفى محاولة منها لاجتناب اراضى الدلتا بمصارفها وترعها .

(٣) لم يدقق عرابى فى حساب ساعات القتال حيث ذكر ان القتال بدأ فى التاسعة نهارا وانتهى فى منتصف الثانية ليلا ، وان مدة القتال كان ست ساعات والحقيقة أكثر من ذلك .

وبتفقد عساكرنا تحقق ان المستشهدين من الأنفار والصف ضباط ٢٩ والملازم الشجاع أحمد افندى على . والجرحى البكباشى محروس افندى الذى توفى واثنان من الملازمين و٦٥ من الصف ضباط والانفار

وخسائر العدو كانت عظيمة فقد تركت عساكر الانكليز بميدان القتال ١٧ جثة منها جثة الملازم (ديز) وصار دفنهم فى جسر المحمودية وقد شوهد الكثير من عساكر الانكليز يحملون قتلاهم وجرحاهم وفى اليوم الثانى رؤيت الارض التى كانت بها المعركة مشوهة بالدماء واثار جر الموتى ظاهرة فى نقط عديدة

ولقد ابدى كل من الضباط والعساكر من الشهامة والثبات فى هذه الموقعة مايستحقون عليه الثناء الجميل فى الدنيا وعظيم الأجر فى الآخره

نص التلغراف الوارد من الخديو بعد انحيازه الى الانكليز[١]

فى ١٧ يوليو سنه١٨٨٢ ورد تلغراف الخديوى من راس التين الينا فى كفر الدوار يقول فيه

اعلموا ان ماحصل من ضرب المدافع من الدوننمة[٢] الانكليزية على طوابى اسكندرية وتخريبها انما كان السبب فيه استمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما كان يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها والآن قد حصلت المكالمة مع الأميرال فافاد بانه ليس للدولة الانكليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولاعداوة وان ماحصل انما هو فى مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونتمة وانه إذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة اسكندرية اليها ولذلك اذا حضرت عساكر شاهانية فالحكومة الانجليزية تحترمهم وتسلم اليهم المدينة فقد تحقق من هذا أن الدولة الانكليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وان تقرير من جميع الدول المعظمة فى المؤتمر بأنه لايصير مس امتيازات الحكومة ولاحريتها ولامس حقوق الدولة العلية بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت وان يصير ارسال عساكر شاهانية لأجل استتباب الراحة فى مصر . فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول امرنا

(١) تضمن هذا التلغراف الأمر إلى عرابى بالكف عن الاستعدادات الحربية وتحميله تبعة ضرب الاسكندرية .
(٢) يقصد الاسطول .

هذا . وتحضروا حالا الى سراى التين لأجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما أستقر عليه رأى مجلس النظار[١] .

(الجواب منا عن ذلك تلغرافيا[٢] فى ١٧ يوليه سنه ١٨٨٢)

مولاى

فى شريف علم مولاى المعظم ان المحاربة التى وقعت بيننا وبين الأنكليز انما تسببت عن طلبات من الأميرال الانكليزى وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد تحت رياسة سموكم بحضور كثير من ذوات البلاد المنتخبين ودولتلو درويش باشا نائب الحضرة السلطانية ولما تحقق عند جميعهم أن هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد قر رأيهم على معارضة طلب الاميرال ولو أدى ذلك الى الحرب . وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة خمسة وعشرين الف عسكرى وصدرت الاوامر الى المديريات بطلبهم وقرر المجلس ايضا انه لاتطلق المدافع الا بعد اطلاق خمس مدافع من السفن الانكليزية ولما ابتدأت السفن باطلاق النيران على مدينة اسكندرية لم نقابلها الا بعد عشرين طلقة ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب ادنى استعداد لاستمرار الأوامر بعدم الاستعداد ثم بعد ذلك اعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهات الأدارة بأن تجعل حربا على الانكليز وانها صارت تحت الاحكام العسكرية كما هو حكم القانون زمن الحرب فبهذه الاسباب يامولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانكليز بوجه الحق والشرع ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقير ولا ازدراء بالدوننمة كما هو معلوم لدى عظمتكم وانما كانت الحرب عدوانا من الانكليز على الحكومة التى لم يبد منها أدنى شئ يستوجب الحرب فان كان الآميرال فى مخابرته مع سموكم أظهر أنه عدل عن المحاربة إلى المسالة فذلك بعد وقوع الحرب يعد طلبا للصلح وسعيا فى تحديد العلاقات ولايجوز أن يكون إنكارًا للحرب بالمرة وتبرؤا من العدوان بعد وقوعهما

---

(١) الوقائع المصرية فى ١٨ يوليو ١٨٨٢ والواقع ان دعوة عرابى الى الاسكندرية كانت خدعة مكشوفه لاتجوز على أبسط الناس عقلا بغية القبض عليه بحجه انه ثائر متمرد على ارادة الخديو وداع إلى الفوضى ، الخفيف : المرجع السابق ج٢ ص١٠١ .

(٢) شرح عرابى فى هذه الرسالة التلغرافية وجهة نظره وأبان الأسباب التى توجب استمرار الدفاع ، واعتذر عن الحضور إلى الاسكندرية لأن الانجليز يحتلونها

ولاشك فى انى أوافق على افكار سموكم فى الميل الى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة . وان كان الاميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخربت بمدافع السفن الانكليزية هدما وحرقا فهاهو جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بنظامه مستعد لأن يستلمها بعد براح المراكب عن مياه اسكندرية . وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعداد العسكرى كما وافق ذلك رأى سموكم أولا حتى تفارق المراكب السواحل المصرية . خوفا مما عسى أن يحدث من قبيل ماسبق فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على أن الوعد بالمسالمة من الانكليز لايمكن كمال الثقة به وإنما هو لأجل شغلنا عن الاستعداد واقتراح مطالب مضرة بمصالح البلاد واننى كنت اتمنى أن أتمثل بين يدى عظمتكم لابداء هذه الملحوظات لو كنتم فى عاصمة بلادكم . ولكن من الاسف أنه تحقق عندى تحيز سموكم إلى العدو المحارب لبلادكم بدليل رفضكم للعودة الى العاصمة وفت ارسال القطار الخديوى لسموكم واختياركم الذهاب الى رأس التين ومعكم النظار وغيرهم من الذوات بعد علمكم بأن المدينة مشغولة بعساكر الانكليز اجابة لراى المستر (كولفن) .

فان كنت يامولاى حرا فيجب حضوركم الى عاصمة البلاد وان كنت أسيرا لدى الانكليز او متحيزا اليهم فلايمكن التسليم بقبول مايكتبه العدو عن سموكم أو عن لسان رئيس النظار وزملائه(١) .والأمر لمن له الامر

الامضاء . ناظر الجهادية

أحمد عرابى

نص ما تحرر الى يعقوب باشا سامى(٢) وكيل الجهادية فى ١٧يوليو سنه١٨٨٢

لايخفى على سعادتكم ما حل بالديار المصرية الشاهانيه من البلاء الذى كان نتيجته الدسائس التى كانت عاقبتها جلب المراكب من بلاد الانكليز بقصد العدوان

---

(١) يذكر النقاش ان عرابى تعلل بعدم حضوره الى الاسكندرية بانها مشغوله بعساكر الانجليز وانه لم يتهم الخديو فى رسالته بالانحياز الى العدو أو بأنه كان أسيرا لدى الانجليز .

انظر كتاب عرابى الى الخديو كما ورد فى سليم النقاش : المصدر السابق ج٥ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) كان يعقوب سامى من اشد المخلصين لعرابى وكان يعلن العداء للخديو الذى انضم الى الانجليز وخان البلاد .

على بلادنا الاسلامية وعند حضورهم واقامتهم بثغر اسكندرية أخذوا فى أسباب اقتراح التكليفات الباهظة علينا مثل امرهم لنا بتنزيل المدافع من الاستحكامات والتصريح لهم باعطائهم ما وراء من طابية المكس من الأراضى ليتخذوها معسكرا لهم وغير ذلك ولذلك اجتمع بامر الخديو مجلس فوق العاده مؤلف من حضرات النظار وعدد غفير من حضرات الذوات المجربين تحت رياسة الخديو ولدى وضع اقتراحات الانكليز فى المذاكرة قرر هذا المجلس المشار اليه حفظ شرف الأمة المصرية والمدافعة عن الشرف والعرض والوطن وكان ذلك بحضور حضرة المشير درويش باشا المندوب من طرف الحضرة السلطانية .

وبعد أن تمت هذه المذاكرة فاجأتنا مراكب الأنكليز بضرب المدافع على مدينة الاسكندرية ولما تم عدد الطلقات عشرين كله[1] وكانت المدافعة واجبة شرعا قابلناهم ايضا بالضرب وانتشبت الحرب بين الفريقين نحو عشر ساعات[2] حتى دمروا اغلب طوابى الثغر المذكور واخرقوا مساكنه ففر جميع الاهالى من المدينة ولما حصلت المخابرة مع الاميرال فى الصلح والاكتفاء بما حصل أبى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف ان لم تسلم اليه جميع الطوابى هذا وقد حصل الخذلان ودب الفشل فى قلوب العساكر فتركوا مراكزهم وفروا الى داخل البلاد ولذلك توجهنا بمن امكن حجزهم من العساكر الى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد وامرنا باجتماع العساكر الفارين فحضروا سريعا بواسطة السكة الحديد وارسلنا القطارات الخديوية لحضور الخديو ومن معه الى عاصمة البلاد فابى وأسرع بمن معه من الحرم والذوات وعساكر الحرس الى الاسكندرية[3] وعند وصولهم الى راس التين استقبله الانكليز بالترحاب وفى الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا على الخديو من السلاح وأخذوا خيولهم واستعملوا عساكرنا خدما لهم ومرشدين فى انحاء المدينة التى خربوها . وهم يقتلون كل من يقابلهم من الوطنيين وصدر امر الخديو الى ناظر مخبز

(١) يقصد طلقه .

(٢) ذكرها سليم النقاش احدى عشر ساعة بينما وردت فى التقارير الحربية الأوروبية ثمانى ساعات ، انظر النقاش : ج٥ ص ١٢٩ .

(٣) يقصد إلى قصر الخديو برأس التين .

القبارى بارسال الخبز الى عساكر الانجليز[١] والآن قد تلقينا من الخديو التلغراف المرسل مع هذا لسعادتكم ومعه ايضا صورة الرد الذى ارسل منا اليه . لكى تعقدوا مجلسا من الذوات والعلماء ومجلس النواب والأعيان وتوضع هذه الأحوال فى الذاكره وتقروا رايكم وتحرروا قرارا بما ترونه فى صالح الأمة وهل يجوز شرعا ماحصل من الخديو من التحيز الى العدو المحارب لبلاده ام لا[٢] وبعد امضائه يفادنا للعمل بموجبه . وداوموا على اهتمامكم بالتجهيزات العسكرية افندم .

(فصل فيما جرى بعد تبادل هذه الرسائل)

وبناء على الكتاب الذى ارسلته الى وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى دعى كثير من الذوات والاعيان فكان عدد الذين لبوا الدعوة نحوا من سبعين شخصا وقد حصل هذا الاجتماع فى ديوان الداخلية فبعد المداولة فيه استقر رأى الملتئمين على لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وعلى استدعاء النظار من الاسكندرية[٣] وهذا نص القرار .

(نص القرار)

فى بداية الحرب بيننا وبين الانكليز كتب حضرة عطوفة رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية إلى جهات الادارة بأن الحرب انتشبت بيننا وبين الانكليز وصارت الاحكام عرفية ومن اللازم الاستعداد للمقاومة ثم وردت منه افادة تلغرافية بعد ذلك بايام مقتضاها حصول الصلح والتنبيه على المصالح بأن تسير سيرا مدنيا وانها خرجت من الاحكام العرفية . وبعد ذلك صدرت إفادة من ناظر الجهادية الى جهات الحكومة يصرح ببقاء البلاد تحت الاحكام العرفية وبأن الحرب لم تزل قائمة بيننا وبين الانكليز وبوجوب الاستمرار على التجهيزات والاستعدادات الحربية مادامت عساكر الانكليز فى مدينة اسكندرية ومراكبهم فى مياهها .

(١) عند مقارنه هذا الخطاب بما نشره سليم النقاش يتضح ان عرابى اختصر منه الكثير . انظر . النقاش ج٥ ص ١٢٩-١٣٠ .

(٢) معنى ذلك ان عرابى اتهم الخديو بممالأة الانجليز ، وحذر ابناء الأمة المصرية من اتباع اوامره .

(٣) حضر هذا الاجتماع وجهاء الأمة وفى مقدمتهم ثلاثة من الامراء وهم الأمير ابراهيم أحمد باشا والامير كامل باشا فاضل ابن عم الخديو ، والأمير أحمد باشا كمال الأحمد .

وصدرت إراده سنية من الجناب الخديو لناظر الجهادية مقتضاها ان لاحرب بيننا وبين الانكليز وأن السبب فى الحرب هو المداومة على الاستعداد فى الطوابى الذى يعد تحقيرا لمراكب الانكليز فضرب المراكب لاستحكاماتنا ولمدينة الاسكندرية ليس حربا للحكومة وانما هو من قبيل رد الشرف وليس هناك حرب حقيقية الى آخر ماذكر بالارادة . فاجاب ناظر الجهادية بأن الحرب كانت بقرار من مجلس عام منعقد تحت رئاسة الحضرة الخديوية وأيد ذلك اعلان رئيس مجلس النظار الى اخر ماذكر فى الجواب المذكور . ثم قدم عرضحال من مخزنجى القبارى باسكندرية لسعادة ناظر الجهادية يشكوا من صرف الخبز لعساكر الانكليز ومنعه عن عساكرنا بامر الخديو وورد للناظر المومى اليه معلومات عن أعمال عساكر الانكليز فى اسكندرية تدل على معاداتهم للمصريين وانهم محاربون لهم كما يعلم من افاداته ثم أن ناظر الجهادية المشار اليه طلب فى أحدى افاداته لوكيل الجهادية أن يشكل مجلس من علماء البلاد وامرائها واعيانها ونوابها للنظر فى هذه الامور المهمة[١] فبناء على ذلك انعقد فى نظارة الجهادية ليلة غرة رمضان سنه ١٢٩٩هـ مجلس مؤلف من سعادة وكيل الجهادية وسعادات كل من سعادة وكيل الداخلية حسين باشا الدره مللى باشا فهمى ووكيل الحقانية[٢] وناظر الدايره السنية أحمد باشا نشأت ودانش باشا ومحمود سامى باشا ومحمد باشا رضا وحضرات باشكاتب المالية وأحمد بك رفعت مدير المطبوعات ومأمور ضبطيه مصر ابراهيم بك فوزى وعلى بك يوسف واحمد بك فرج وحسن بك جاد وبعد المداولة قرر المجلس المذكور انعقاد مجلس عام يشكل من اكابر العلماء والرؤساء الروحانيين من الطوائف المختلفة ومأمورى الحكومة الحائزين للرتبة الثانية فما فوقها وامراء العائلة الخديوية وأكابر الذوات المتقاعدين وأعيان التجار وأن يكون انعقاده فى نظارة الداخلية يوم الاثنين غرة رمضان سنه ١٢٩٩ هـ .

وفى الميعاد المذكور انعقد المجلس تحت رياسة سعادة وكيل الداخلية[٣] من عدد كثير من كل طبقة من الطبقات المذكوره وتليت على مسامع الحاضرين جميعا الاوراق

(١) تولى هذا المجلس ادارة شئون البلاد وكان اشبه بمجلس الوزراء ، وكان من أهم قراراته وضع الرقابة على الصحف والتلغراف ، ومنع السفر إلى الخارج خلال مدة الحرب ، والمحافظة على الأمن والنظام فى البلاد وامداد الجيش بما يلزمه من رجال وعتاد .

(٢) يقصد بطرس باشا غالى .

(٣) تولى هذا المجلس سلطة الحكم ، وظل كذلك خلال الحرب ، واطلق عليه المجلس العرفى .

المتعلقة بهذه المسائل المتقدمة وطلب منهم النظر فيها لكونهم أعيان البلاد وأصحاب المصالح المهمة فيها فقر رأى الجميع بعد المداولة .

اولا على لزوم الاستمرار فى الاستعدادات الحربية مادامت عساكر الانكليز فى مدينة اسكندرية ومراكبهم فى مياهها .

ثانيا على انه يلزم طلب حضور الخديو والنظار الى العاصمة ان كانوا[١] احرارا .

ثالثا على أن تعلن لجنة مركبة من ستة مندوبين من طرف المجلس العام ليتوجهوا الى اسكندرية ويبلغوا سمو الخديو وحضرات النظار قرار المجلس ثم يدعونهم الى العاصمة ان كانوا احرارا .

وقد انتخب المجلس رئيسا لهذه اللجنة سعادة على باشا مبارك وزير الاشغال سابقا فى زمن الاستبداد والاعضاء رؤوف باشا حاكم السودان سابقا وأحمد بك السيوفى من الاعيان والشيخ سعيد الشماخى وكيل دولة مراكش فى مصر والشيخ على نايل والشيخ أحمد كبوه من العلماء .

وبعد ذلك انقضت الجلسة فى الساعة الحادية عشر[٢] عربى من اليوم المذكور .

وفد المجلس الى الخديو والنظار .

وبناءً على قرار المجلس المذكور خرج الوفد المعين من الذوات السابق ذكرهم إلى معسكر كفر الدوار[٣] ومنه توجهوا الى الاسكندرية على ظهور الخيل ومعهم الحرس اللازم وفى صباح ٢٣ يوليه اجتمعوا بالخديو والنظار واخبروهم بمهمتهم فصار حجز على باشا مبارك وأحمد بك السيوفى بالاسكندرية ورجع محمد باشا رؤوف والشيخ سعيد الشماخى والشيخ على نايل والشيخ أحمد كبوه وكذلك اسماعيل باشا حقى لضعفه

---

(١) اوردها النقاش كما يلى :

يلزم طلب حضرات النظار الى العاصمة لاستعلام منهم عن حقيقة ماحصل قبل الحرب وبعده ليتمكن المجلس من اعطاء قراره فيما بعد ، انظر : ج٥ ص١٣١ .

(٢) بالحساب العربى قبل الغروب بساعة .

(٣) يذكر النقاش انه قد جرت مناقشات بين عرابى وأعضاء هذا الوفد ثم اختير على مبارك وأحمد السيوفى فقط للذهاب الى الاسكندرية .

انظر : النقاش ج٥ ص ١٣٢ .

وكان رجوعهم بمقتضى تصريح خصوصى من قائد الانكليز وبرجوعهم اخبرونا كما اخبروا المجلس بأن الخديوى أسيرا عند الانكليز ولا يمكنه الرجوع الى مصر[١] .

(صورة امر الخديو بعزلى من نظارة الجهادية)

الى أحمد باشا عرابى فى ٤ رمضان سنه١٢٩٩ و٢٠يوليو سنه١٨٨٢م

«ان سفرك الى كفر الدوار مصحوبا بالجند وخروجك من الاسكندرية بعد القتال[٢] وتعطيلك للخطوط الحديدية والبريد ومنعك لمهاجرى الاسكندرية من العودة الى اوطانهم واستمرارك على اعداد التجهيزات الحربية وعدم قدومك الى الاسكندرية يوم استقدمتك اليها كل ذلك الجأنى الى عزلك من وظيفتك فانت بمقتضى هذا الامر المرسل اليك معزول منذ الآن من نظارة الجهادية والبحرية[٣] .

ثم شفع هذا الاعلان بمنشور علق فى شوارع المدينة وفيه أبان الاسباب التى دعت لعزلى واضح أن نزول العساكر الانجليزية الى المدينة لم يكن بقصد التبوؤ والاستيلاء فان المؤتمر القسطنطينى لايوافق على ذلك بل ان الانكليز يعودون الى بلادهم بعد استتاب الأمن والراحة فى البلاد المصرية وبعد اعادة سلطنة الخديوية وارسل هذا المنشور مع منشور بهذا المضمون من اميرال العمارة الانكليزية يعترف فيه بأن العمارة المذكورة تعود الى انكلترا بعد تأييد سلطة الخديو واعادته الى مركزه ولا مطمع للانكليز فى الاستيلاء على البلاد المصرية وارسلت تلك المنشورات الى رؤساء المراكز العسكرية وعمد البلاد ومشايخ العربان

وفى اليوم المذكور حضرت فلوكه الى ابو قير وسلمت أمر الخديو بعزلى ومنشور الخديو والاميرال الانكليزى الى حكمدار النقطة المذكوره خورشيد باشا طاهر ومن طرفه ارسلت لنا الاوراق المذكوره بافاده منه فارسلناها برمتها الى رئيس المجلس العام بالقاهره لفحصها واعطاء القرار من المجلس بما يراه .

---

(١) لم يتأكد ذلك القول من مصادر أخرى . والحقيقة انهم اخبروه بأن الخديو والنظار كانوا فى حرية تامه .
دار الوثائق : محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ١٩ ملف ٩٠ بتاريخ١٣ أكتوبر١٨٨٢

(٢) حذف عرابى بعد كلمة القتال جملة «بدون أن تؤمر بالخروج منها» انظر سليم النقاش : المصدر السابق ج٥ ص١٣٢ وأيضا الوقائع المصرية عدد ٢١ سبتمبر ,١٨٨٢

(٣) الوقائع المصرية فى ٢١ سبتمبر ١٨٨٢ .

(فى توقيف الخديو وعدم العمل بأوامره)

انعقد المجلس العام فى ديوان الداخلية فى ٢٢ يوليه سنه١٨٨٢[١] و٦ رمضان سنة ١٢٩٩ وبعد تلاوة الاوراق المعروضة صدرت صورة فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله وشيخ الاسلام والمسلمين السيد محمد عليش وشيخ الاسلام الشيخ حسن العدوى والشيخ الخلفاوى وغيرهم من العلماء بمروق الخديو توفيق باشا من الدين كمروق السهم من الرمية لخيانته لدينه ووطنه وامته وانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده فقر قرار المجلس بما يأتى

« بعد تلاوة الاوامر الصادرة من الخديو أولا وآخرا وفيها الأمر الصادر بعزل احمد باشا عرابى وتلاوة منشورات عرابى باشا وبعد سماعنا ماعرضه وكيل الجهادية بصفته بهذه الوظيفة وكونه رئيس المجلس المشكل لادارة اشغال الحكومة على المجلس وهو . « هل وجود الخديو فى اسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الانكليز يقتضى عدم تنفيذ اوامره أم لا وإذا صدرت له اوامر من الخديو هل يعمل بها ام لا؟ رأينا ان وجود العساكر الانكليزية فى اسكندرية وبقاء مراكبهم الحربية فى السواحل المصرية ووقوف عرابى باشا لمدافعة العدو يقتضى وجوب بقاء الباشا المشار اليه فى نظارة الجهادية والبحرية مداوما على قيادة العساكر ومتبعا فى أوامره المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصاله من تلك الوظيفة . ورأينا وجوب توقيف اوامر الخديو ومايصدر من نظارة الموجودين معه فى اسكندرية كائنة ماكانت لأى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث ان الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ويلزم عرض قرارنا هذا على الاعتاب الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات .

وبعد امضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطة التلغراف على الحضرة السلطانية وصار ابلاغه الينا رسميا والزامنا بالمداولة على الدفاع واعطائنا لقب حامى حمى البلاد المصرية .

---

(١) الحقيقة ان هذا الاجتماع عقد فى ٢٦ يوليو ١٨٨٢ ، انظر محافظ الثورة العرابية :محفظة رقم ٢١ ملف ٩ جلسة المجلس العرفى بتاريخ ١٠ رمضان ١٢٩٩ / ٢٦ يوليو ١٨٨٢م .

وفى ١٢ رمضان سنه ١٢٩٩ ، ٢٨ يوليو سنه١٨٨٢ ورد تلغراف من على باشا مبارك رئيس الوفد الذى ارسل من المجلس العام الى الاسكندرية لمقابلة الخديو واستدعائه الى القاهرة بمن معه من النظار قال فيه

«بحمد الله تعالى وصلنا الى الاسكندرية واخذنا نسعى فى الاشتغال بالمأمورية المخولة على عهدتنا من قبل المجلس المنعقد بالقاهره . وفى علم سعادتكم أهمية مأموريتنا وماتحتاجه من المذاكرات فلأجل الوصول الى الغاية المقصوده فى الزمن القليل يلزم ان المخابرات بيننا وبين سعادتكم تكون بواسطة التلغراف فربما ينتج منها فائدة الوطن وحفظه من الغائلات ثم اعرض على سعادتكم أنه تقرر تشكيل قومسيون يكون مركبا منا ومن بعض الذوات يجتمع مع قومسيون مركب ممن تعينونه وتعتمدونه من امراء العسكرية ليجتمعوا فى محل يصير تعيينه بالاتفاق للمذاكره فى الاحوال الحاضرة بأمل الحصول على نتيجة توافق الجميع وتزيل هذه النازلة عن وطننا العزيز فان راق لكم فلتعينوا سعادتكم المحل والذوات العسكرية وتفيدونا بما ترونه[١] افندم .

(جوابنا اليه) تلغرافيا

نحمد الله على وصول سعادتكم بالسلامة وبعد فانى تشرفت بورود تلغراف سعادتكم الذى به تطلبون منى تعيين قومسيون من العسكرية لانضمامه مع قومسيون يتشكل من سعادتكم ومن بعض الذوات للمذاكره فى الاحوال الحاضرة . . وحيث ان المعلوم لنا هو انه صار عقد مجلس حافل عمومى بمصر من ذوات العسكرية والملكية والعلماء والتجار والاعيان والرؤساء الروحانيين وكنتم سعادتكم من ضمن الموجودين به وماكان عقد هذا المجلس الا النظر فى الأحوال الحاضره واتخاذ التدابير اللازمة لوقاية البلاد وقد قرر كما تعلمون سعادتكم باستمرار التجهيزات الحربية وبارسال سعادتكم مع من تعين معكم لمأمورية مخصوصة ومحدودة ومن هذا يرى سعادتكم أنه لايوجد لى أدنى صفة حق لتعيين قومسيون من طرفى لأدرى الغرض من بعد قرار المجلس الذى صار عقده بالقاهرة على انى لست مستقلا بعمل أمر ما بل انى مطيع ومنقاد فى أى حال لما تأمر به الأمة ولهذا فانى متأسف لعدم امكانى اجابة طلب سعادتكم افندم

(١) الوقائع المصرية عدد ٣١ يوليه ١٨٨٢ .

(منشور من الخديو)

وفى ٢٣ رمضان سنه١٢٩٩ الموافق ٨ أغسطس سنه١٨٨٢ صدر منشور من الخديو الى جميع المصريين وهذا نصه .

« نحن خديو مصر نعلن لجميع المصريين أن عرابى باشا قد ارتكب آثاما فظيعة جلبت على مصر وأهلها خسارة لا وصف لها وجعلت الدول الاوربية ناقمة عليها فانها باتت الآن تعتبر المصريين أمة غير متمدنة فهذه الآثام والجرائم منحصرة فى عصيان عرابى المذكور وتحريضه للقوم على السير تحت لواء العصيان وفى الدسائس التى نشأت عنها مذبحة طنطا وغيرها من البلاد فاوقفت فيها حركة التجارة وعطلت اعمال الزراعة ثم فى عصيانه لأوامر جلالة السلطان المعظم وهى الاوامر التى صدرت له بالانقطاع عن التظاهر بالعدوان فى الاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة من هلاك نفوس وتدمير قلاع وخراب أبنية

وبعد أن بدد عرابى فى اقل من ساعة شمل سكان الاسكندرية التى نهبها أضرم فيها النار وخرج منها بجيشه ذاهبا الى كفر الدوار حيث عسكر بقومه من غير علمنا وبغير ارادتنا فبعث ذلك على نزول الانكليز الى المدينة لاطفاء النار المضرمة فيها ومنع النهب والمحافظة على الراحة

وفوق ذلك منع المهاجرين من العودة إلى اوطانهم وقطع مابين اهلهم وبينهم وسائل الصلة والعلاقة وقطع الماء عن الاسكندرية وأعلن جهرا عصيانه باكاذيبه الظاهرة فلذلك عد عاصيا ومستحقا لأشد العقوبات بمقتضى الشرع الشريف

ولايزال مع ذلك عاملا على تعمم الخراب بمساعدة جنده والاهالى المتحزبين معه المنقادين لآدائه الوخيمة وقد تجاوز الحدود بما يفوق الوصف فاستولى على أموال الضرائب وعزل كثيرين من موظفى الحكومة واستبدلهم بغيرهم فى حاله كونه معزولا من وظيفته معدا للعقاب الصارم الشديد .

ولقد رأينا أن قلوب كثير من رعيتنا لاتزال قاسية مائلة الى عرابى بالرغم من اوامرنا السابقة فلذلك اصدرنا هذا المنشور الآخر معلنين فيه ان كل شخص يعرف عنه انه ذا ضلع مع عرابى وميل اليه عددناه عاصيا مستحقا لجزاء العصيان

فرحمة بمصر واهلها نستأنف الآن إعلاننا للمصريين عموما والجند خصوصا أن كل من أصر على عصيانه وانقياده لعرابى كان مذنبا امام الله وغير مقبول العذر لدينا فنجرده مع ولده وذريته من جميع الرتب والرواتب ومعينات التقاعد وسائر الامتيازات التى كان متمتعا بها (حكم جائز استبدادى) لأن الله سبحانه يقول (لاتضار والدة بولدها ولامولود بولده) ولكنه اغتر بقوة الانكليز .

« وليعلم المصريون اننا نحن اميرهم ومولاهم وان لايرتكبوا عصيانا علينا وليعلم كل منهم ايضا انه اذا ادى للعاصى عرابى أو لاتباعه أموال الضرائب كانت تأديته للمال غير محسوبة لدينا بل اننا نطالبه بها يوم تنقشع عن سماء مصر غيوم النكبات العرابية» انتهى

وجاء فى كتاب مصر للمصريين للنقاش مايأتى ١٣٩ صحيفة ٥ جزء

وبعد أن اصدر الخديو هذا المنشور بعث الى اركان حرب الانكليز بكتابة يهنئهم بها على نجاحهم فى الوقائع الأخيرة .

(نص منشور منا الى جميع فروع الحكومة[١] ، والى رؤساء الجيش)

وفى ٢٨ رمضان سنه١٢٩٩ الموافق ١٣ أغسطس سنه١٨٨٢ اصدرنا منشورا الى رؤساء الجيش فى المراكز الحربية وللمديريات ولجميع فروع الحكومة هذا نصه :

قد أوجب الله علينا من اعداد مانستطيعه من القوة لقتال الأمة الانجليزية التى اعتدت على البلاد شرها وطمعا وبادأتنا بالحرب بغيا وعدوانا وقد قام به احسن قيام كل على قدر شأنه كل حر مخلص شهم عالى الهمة شريف الذمة من رجال البلاد عموما ونظراء سعادتكم من حضرات المديرين خصوصا بعناية الله واتحادهم الجميع الذى هو اثر الغيره الوطنية والحمية الانسانية قد أدركته البلاد فى زمن يسير من عظم القوة وجليل الاستعداد مالم يخطر بالبال قبل الآن الحصول عليه الا فى زمن مديد ولايخفى أنه من

(١) كان هذا المنشور ردا على منشور الخديو وكان عرابى يكتب فى شأن مثل هذه الامور الى رؤساء الجيش والى المديرين وغيرهم .

اجل ما يجب حسن القيام به هو مزيد الحرص على اللحظة الواحده من زمن المحاربة فلا تفوت الا وقد صرفت فى حسن التدبير واصالة الرأى فى النكاية بالعدو ورده على عقبيه خاسرا خاسئًا .

وانه مما وجب اعداده لذلك هو زياده الجند خمسة وعشرين الف عسكرى[١] فبناء على ذلك وما ترآى أن هذا العدد اذا شرع فى جمعه بحسب القرعة العسكرية قد يجتمع من شبان يلزمهم للتدريب والتمرين على حمل السلاح وقت لايحسن تقويته الا باعظم مايمكن من الفائده والنجاح لما مر - وحيث أن غفراء البلاد المرتبين من الاهالى هم بالطبع أكثر من غيرهم تعودا وتمرنا على حمل السلاح وحركات الدفاع وأشد قوة وبأسا واثبت جاشا لدى المقاومات العدوانية وقد تيسر جدا جمع هذا العدد من هؤلاء الغفراء وحشده مع الجيش فى زمن وجيز وبحال اقرب واسهل مما لو جمع من غيرهم بالقرعة العسكرية فعليه قد وافق أن يتخصص هذا العدد على المديريات ويسرع بجمعه من الغفراء المذكورين كل بلد وما خصها منه وقد خص مديرية سعادتكم من العدد المذكور (كذا) نفرا من ذلك فالقصد مزيد الاعتناء والاسراع بجمعه بعد تخصيصه على بلاد المديرية من نفس الغفراء المذكوريين ثم يجرى تفهيم كل واحد منهم بانه فى نظير تلبية لدعوه هذه الخدمة الوطنية الشريفة مع المسرة والبشر شأن الحريص على شرف قومه وبلاده فانه بعد انتهاء الحرب بنصرنا وظفرنا بفضل الله يكون معافا فى المستقبل من الخدمات العسكرية ثم يجرى إرسال الانفار المذكورة بالافادات المقتضية كالجارى أما الخفراء الذين يلزم ترتيبهم بدل المذكورين فيجرى انتخابهم وتعيينهم فى محلات ودركات أسلافهم فى الحال حسب ما يلزم واقتضى تحريره ونشره للاجراء على مقتضاه[٢] . ا هـ .

---

(١) طالب عرابى بالاستعداد للمعركة الفاصلة ، وجمع مايلزم للقتال ، وزيادة عدد الجيش وتعزيز استحكاماته ، الوقائع المصرية فى ١٧ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) سليم النقاش : المصدر السابق ج٥ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

وهذا بيان ما خص كل مديرية من العدد المذكور

عدد	
١١٧٢	مديرية البحيرة
٣٤٣٥	مديرية الغربية
٢٤٢٨	« المنوفية
٢٦٦٥	« الدقهلية
٢٠٧٧	« الشرقية
١٠٣٨	« القليوبية
١٣٥٠	« الجيزة
٦٩٥	« بنى سويف
٨٦٣	« الفيوم
١٧٣٨	« المنيا
٢٣٤٥	« أسيوط
٢١٦٢	« جرجا
١٦١٠	« قنا
١٤٢٤	« إسنا
٢٥٠٠٢	الجملة

الفصل الثانى
(فى كرم المصريين وسخائهم)[1]

قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزائن الحكومة درهم ولا دينار لأن المراقب الانكليزى المستر (كولفن) أخذ الاموال الموجودة فى خزينة المالية وانزلها فى الدوننمه الانكليزية قبل اعلان الحرب بأيام وكذلك الاموال الموجوده فى صندوق الخزينة العمومى حملها اعضاء قومسيون الصندوق الى المراكب الحربية حيث امنوا عليها .

وفى ١٥ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت اشارة تلغرافية من رئيس مخبز القبارى بأنه موجود بالمخبز ثلاثمائة الف أقة بقسماط ويخشى من ان عساكر الانكليز يأخذونها فاخترت لاستحضار ذلك القائمقام محمد بك نسيم لما رأيته فيه من الغيرة الوطنية وأمرته ان يأخذ وابور بعربات فوارغ لشحن البقسماط الموجود بمخبز القبارى او حضوره الى كفر الدوار فصدع بالأمر واخذ الوابور وتوجه الى القبارى باسكندرية ولكن يا للأسف خاب ظنى فيه فانه بوصوله الى اسكندرية ترك القطار وتوجه الى رأس التين وأخبر الخديو بما فعل فأمر الخديو بحجز القطار وصرف البقسماط الى الجيش الانكليزى ومنعه عن عساكرنا وكان ذلك الشاب الممتلىء غيرة ونشاطا محمد بك نسيم أول من ترك الجيش وانحاز الى جانب الخائنين لوطنهم[2] واقتدى بعمله هذا القائمقام اركان حرب محمد بك لبيب والبكباشى عبد الرزاق نظمى الذى قتل بعد ذلك فى حرب الدراويش بسواكن .

وبناء على ما ذكر تحرر من المجلس العام للمديريات بتحصيل الاموال من الاهالى عن كل فدان عشرة قروش ومن شاء ان يتبرع بشىء اعانة لاخوانهم المجاهدين فى سبيل المدافعة عن الوطن يقبل منه مع اعلان الشكر له .

---

(١) أمدت الأمة المصرية العرابيين بسخاء من مال وعتاد ورجال ، وقل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزائن الدولة والتى قامت على ما بذل الشعب طائعا من أقواته وأمواله ودماء رجاله وقد وقف عرابى فى خطوط دفاعه مستندا على الأمة المصرية بكافة طوائفها .

(٢) توالت عدوى الخيانة فانحاز محافظ بور سعيد للانجليز وقام بعد ذلك «على بك ياور» وكيل محافظة بورسعيد بالالتجاء إلى الانجليز ، كما التجأ بعض الضباط الى الخديو والانجليز فى وقت كان عرابى فى أشد الحاجة الى تعضيد الجبهة الشرقية .

انظر ديوان المعية السنية عربى (صادر) دفتر صادر الاتاوات الى جهات الاقاليم والمحافظات رقم س٢٠/٧/١ ص٦٢ .

ولما اعلن ذلك للعموم جاءت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والابقار والجواميس والاغنام والفاكهة والخضروات حتى حطب الحريق ومنهم موسى بك مزار الرجل الوطنى الكريم تبرع بألف وثلاثمائة توب بفتة وثلاثين عجل بقر عن طيب نفس ومنهم والدة الخديو اسماعيل تبرعت بجميع خيول عرباتها واقتدى بها باقى أفراد العائلة الخديوية وكذلك حرم خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وحرم رياض باشا وكثير من الذوات والسيدات فضلا عن الأقمشة والأربطة اللازمة للمجاريح ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع ما يمتلكه ومنهم من عرض اولاده للدفاع عن الوطن العزيز لعدم قدرته على القتال بنفسه وفى الجملة فان الامة المصرية قدمت من التبرعات والكرم واظهرت من الغيرة الوطنية ما لم يسبق له مثيل فى القرون الخالية[١] . فاسأل الله سبحانه ان يجزى الأمة خير الجزاء وان يرد لها استقلالها .

الحق يقال ان الأمة المصرية على اختلاف مشاربها كانت شديدة التحمس والنهوض لقتال الانكليز الطامعين فى بلادها وكان نبهائها يعقدون الاجتماعات ويلقون فيها الخطب الحماسية والقصائد الدالة على كبر نفوسهم[٢] . فمن ذلك قصيدة نظمها الشيخ أحمد عبد الغنى أحد علماء الجامع الأزهر قال فى مطلعها .

لعمرك ليس ذا وقت التصابى	ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوى	ولا وقت التغافل والتغابى
ولا وقت التشبب فى سليمى	ولا وقت التشاغل بالرباب

الى ان قال :

---

(١) تزاحم الأهالى على اعانة الجيش بما يلزمه وقامت البلاد تدافع عن شرفها وتحارب عدوها فانضم الرجال إلى معسكرات التدريب لخوض المعركة وتركوا محلاتهم وعائلاتهم ومزارعهم .

انظر محافظ الثورة العرابية ارقام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ٢١ ، ٢٢ وأيضا الحوادث اليومية والوقائع الحربية فى الثورة العرابية .

(٢) من الكلمات الشعبية التى كان يرددها الناس فى قرى مصر ومدنها تلك الكلمات التى صارت شعار الشعب المصرى وهى «الله ينصرك يا عرابى» والجدير بالذكر ان المستر برودلى محامى عرابى اثبت فى كتابه كيف دافعنا عن عرابى هذه الكلمات بالعربية مذهبة على الغلاف .

ولكن ذا زمان الجد وافى وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت ليس فيه يليق الا اقامة بالقلاع وبالطوابى
ووقت فيه الاستعداد فرض لتنفيذ الأوامر من عرابى

ومن قوله فيها :

وفى مصر لقد طمعوا ومصر بكم والله امنع من عقاب

وقوله :

وقوموا بالثبات على الدعاوى وقولوا فيهم فصل الخطاب
وان سالوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب

وقوله :

وقولوا يا عرابى مر بأمر تراه فانت ذو الأمر المجاب
ودم لوزارة لسواك تأبى وان وصلت اليك بلا طلاب
يا عرابى دم رئيسا لحزب النصر محفوظ الجناب

وقال آخر فى مطلع قصيدة :

نوال المعالى من طعان الكتائب ونيل الامانى من ثمار المتاعب
وقهر الاعادى بالتدبر أولا وبعد باشهاد السيوف القواضب

الى ان قال :

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا الى اليوم من اضلالهم فى غياهب

وقال :

ومن كعرابى فى البرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب[1]

(١) الجدير بالذكر ان مثل هذه الأقوال المنظومة والمنثورة شىء كثير ، وهى مع منشورات عرابى كانت باعثا على تهييج الخواطر واثارتها ضد الخديو .
انظر : سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص١٣٥ ـ ١٣٦ .

(ومنها خطبة الشيخ على المليجى)

وكانت الخطب تتلى اثناء ذلك فى المساجد والمجتمعات مبينة ما يجب الاهتمام به (اذ ذاك) من التجهيزات الحربية[١] فمنها خطبة الشيخ على المليجى فى أسيوط القاها على جمع كثير من أهالى بندر اسيوط وهى :

الحمد لله الذى جعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم وعودها العناية والنصر اذا العدو بها ألم لا إله الا هو لا عزّ لنا الا به الى يوم الدين فهو المختص باعانة من هاجر فى سبيله وكلف عزمه وسمعه لقوله تعالى ﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله إن الله لا يضيع اجر المحسنين﴾ .

نحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم ونتوب اليه من جميع الآثام اذا جرى بها القلم ونسأله اللطف والعناية والنصر على الكافرين .

واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له المتعالى عن المشاركة والمشاكله وعن ان يحتاج لمشارك له فى اعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين . واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله اللهم صلى وسلم على هذا النبى العظيم والرسول الكريم سيدنا محمد وعلى آله واصحابه كلما برق النصر للمؤمنين وبان اثر الذل على الخائنين وسلم تسليما كثيرا .

اما بعد فيا عباد الله لاخفاء انه قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم وما ذلك الا لعدم الحمية الاسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم اذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم اذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم وصاروا باذلين الهمة فى التوصل لما يبعد الأمة عن التشويش ولما يكونون به آمنين اذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه فى مدافعة من كانوا فى تشويش الأمة أول سبب وباع نفسه وجيشه للجهاد فى سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب كل ذلك لحفظ الوطن واعلاء كلمة الدين فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة لما انهم هاجروا تاركين الأهل والملابس الفاخرة ولم يكن لهم مطمح نظر

---

(١) طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد الحسين ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانجليز .

سوى النصر من رب العالمين واعلموا عباد الله بأن الله تعالى امرنا فى كتابه المجيد بالقتال واوضح لنا امره فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل امره وتأمل فى قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يأتونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين﴾ فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه واشترى آخرته وباع دنياه بالجهاد فى سبيل الله وتباشر بقوله تعالى ﴿فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وأن يكن منكم الف يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ فأفيقوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الأجل وزودوا انفسكم التقوى واعرضوا عن المتقاعدين فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الانفاق على من تبرع بنفسه لدفع الأعادى وصارت شهامة الاسلام على وجهه وجميع اعضائه تنادى وجعل قوته قوله تعالى ﴿ثم ننجى رسلنا والذين امنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين﴾ فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق ومن دين الحق مارق وغافل عن قوله تعالى ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال «من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وايمانا برسلى فهو ضامن على الله عز وجل اما ان يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة واما ان يسبح فى ضمان الله وان طالت غيبته حتى يرده الله الى اهله مع ما نال من أجر وغنم وعلى الله قصد السبيل[1] .

(ومنها مقالة للشيخ محمود ابراهيم فى اسيوط)

حمدا لمن جعل اعلام الله المحمدية على كواهل اعلام الأمة العربية وحرسها بشهب ثاقبات لصخر شياطين أهل البغى والغواية وصلاة وسلاما على من كان اذا اراد غزوا ورَّى ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصدق خالص آرائه وعلى آله الذين اقاموا انفسهم اسوارًا لحرمة الدين ومن تبعهم فى المحاماة من كل حر لعرضه يصون .

أما بعد فان الانكليز قد طاشت عقولهم وعميت بصائرهم فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق اموالنا وديارنا نفيسها وساقوا ايضا من زيف المعارضات خسيسها وقابلوا تحيتنا بخداع وفتشوا اكنافنا لغدر اضمروه ليوم النزاع ونحن لما جبلنا عليه من محاسن

(١) انظر سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

الايمان وفينا لهم بعقد الذمة والأمان فعاملناهم بالحسنى وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا فلما صحت ابدانهم وعمرت أوطانهم لم يقنعوا بذلك بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء والله يؤيد بنصره من يشاء حيث اقام ناظرا بعين الشرع ناظر لم يخش فى الله لومة لائم او زجر زاجر فقابل كتائب الضلال وأذاقهم كأس النكال وقام خطيبنا يدعو الى دعوة الحق اذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق فلباه اناس باعوا ارواحهم للجهاد فى قطع جيش الضلالة والعناد فاقبلوا اليه من كل فج عميق أفواجا بالمال والنفس فرادى وأزواجا . فعند ذلك دهى الانكليز ما دهاها حيث لم يكن فى حسابها ما عراها فنسأل الله ان يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه فى حديث (يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) فان البشائر دلت عليه حتى يمزق البغاة كل ممزق ويحيى المندوب والمفروض بهذا الموفق وتموت البدع التى اسود القطر بظلمائها ويختفى شارق الظلم بأرجائها فحاشا ان يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافرين جعل الله سعادة احمد عرابى باشا وجنده الظافرين باعدائنا فى المبدء والآخر آمين[1] .

(ومنها خطبة للشيخ محمد أبو الفضل القاها فى جامع الاستاذ الحنفى وهذا نصها)

الحمد لله الذى البس المسلمين من أنواع النصر اثوابا وأبلس الكافرين وأغلق عليهم ابوابا ودمر تدبير كل انكليزى لئيم فسبحانه جعل الجهاد فرض كفاية على المسلمين فى كل عام وفرض عين اذا حضر العدو أرض الاسلام ووعد المؤمنين بالنصر والفوز العظيم أحمده سبحانه وتعالى وأشكره وأتوب اليه واستغفره وأسأله النصر والفتح العميم واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتعالى عن المشاركة والمشاكلة وعن الناصر والمعين حسبما دل عليه الدليل القويم .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله الذى حث على الجهاد وبشر بالخير الجسيم . اللهم صلى وسلم وبارك على هذا النبى الكريم والرسول السيد السند

(١) انظر سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٥٠ ــ ١٥١ .

العظيم سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ولم يخشوا فيه لومة مليم وسلم تسليما كثيرًا أما بعد فيا عباد الله قد تميز الغث من السمين واستبان ان الانكليز جاؤنا محاربين يريدون لا مكنهم الله سلب الاموال وهتك الحريم وقد جاءوا بمكر وخداع يصطادون بشبكة حيلهم الأوطان من غير قتال ودفاع كما هو ديدنهم القبيح فى كل اقليم فتيقظ لذلك العقلاء والشجعان فذبوا عن الاعراض والاوطان وسقوهم كأس الحميم وأيد الله المسلمين بالعساكر المصرية وأمدهم بالعناية الربانية ومن عليهم بالثبات المولى الكريم واغتر لخداعهم بعض الجهال فاذاعوا سيئ الاقوال وحادوا عن الطريق المستقيم فتنبهوا من الغفلة يا بنى الديار وارفعوا عنكم الذل والعار وأذيقوا الانكليز العذاب الاليم واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل واحترسوا من طوارق النهار والكيل وتجردوا عن كل وصف ذميم واجعلوا سيوفكم لهامات الاعداء دامغة وقنابلكم فى اكبادهم والفة وعجلوا بهم الى العذاب الاليم واجزموا بالنصر وان عن قلة وان الاعداء سيرجعون بالخيبة والذلة ويصلون من بنادقكم نار الجحيم واعتمدوا فى النصر على الله ومن جاهد فالله ناصره ومولاه وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم وحركوا سلاسل القدر بالادعية فى الأسحار وتضرعوا الى الله فى قطع دابر الكفار واعلموا ان الله بالمؤمنين رؤوف رحيم وسارعوا الى الجهاد فقد آتت المسارعة وقارعوا فقد حانت المقارعة واعلموا أن الآجال بتقدير العزيز العليم وانفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وأنفسكم ركبانا ورجالاً وابتغوا بذلك الأجر العظيم والنعيم المقيم وقاتلوا قوما نقضوا العهود والإيمان وهموا باخراجكم من هذه الاوطان وهكذا سننهم الحديث والقديم ولا تخشوهم فالله احق بالخشية إن كنتم مسلمين (قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشأ والله عليم حكيم)[1] . . أ هـ .

(ومنها خطبة الشيخ حميده الدمنهورى)

جاء فى بعض فقراتها ما نصه :

اعدوا لأعدائكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم

(١) سليم النقاش : المصدر السابق جـ ٥ ، ص ١٩٤ .

وكونوا لدين الله من المنتصرين تفوزوا برضى المولى اللطيف الخبير وقوموا لمحاربة أعداء الله واعدائكم البغاة الطغاة وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير فان الجهاد الآن فرض واجب علينا لدخوله الأعداء فى بلادنا محاربين فمن اتى بواجب الجهاد أحرز فضله ومن تطوع خيرا فهو خير له فالسعيد من سارع الى اغتنام الأجر من الله العلى الكبير فيامن اراد الجهاد ورام به رضاء مولاه اقدم عليه ولا تخف وبع نفسك فى سبيل الله وكن على ثبات اذا اقتحمتم الحرب ولو تحملت فيه كل أمر خطير (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتهاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فهنيئا لهم بما نالوا من الفضل والشرف ذلك هو الفوز الكبير .

ومن قوله فيها :

ان كل انسان بما هو عليه من تحمل النصب لنصرة الدين خبير فعلى الاغنياء اعانة هذا الجيش بما يقدرون عليه من المؤونة ويحفظونه من غوائل الجوع ويقوونه فانه الحصن الحصين لردع العدو والخائن الحقير فمن جاد بنفسه لنصرة دينه قد نال الفوز والقبول ومن سارع لحفظ شرفه وعرضه ادرك المقصود والمأمول فالهمة الهمة يا أهل الغيرة الاسلامية والسرعة السرعة يا أهل الحمية الايمانية والنجدة النجدة يا أمة الهادى البشير النذير (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين) لا تظنوا غير النصر الذى وعدنا الله به واصبروا فالصبر يهون كل عسير (قال رسول صلى الله عليه وسلم لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الأرض ومن عليها ولموقف الرجل فى الصف افضل من عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليه وسلم (ان الله تعالى اعطى المجاهدين ثلاث خصال من قتل منهم صار حيا مرزوقا ومن غلب اعطاه الله اجرا عظيما ومن عاش يرزقه الله رزقا حسنا)[1] . . أ هـ .

(ومنها خطبة الشيخ عبد الوهاب ابى عسكر)

قال فيها :

الحمد لله الذى أعز الاسلام ورفعه وأذل من خذله ووضعه وهيأ له فى كل عصر من

(١) سليم النقاش : المصدر السابق جـ ٥ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

الاعصار حماة وأنصار ذوى همم وعزم وافتخار يحمون حوزته ويقوون صولته ويقيمون شوكته ويظهرون شريعته وهكذا فى كل عصر يتجدد النصر ويلحق الاعداء الخزى والذل والقهر والصلاة والسلام على من سن لنا سنة الجهاد وامرنا بتجريد السيوف من الأغماد . لقتال اهل البغى والفساد واخبرنا صلى الله عليه وسلم ان الجنة تحت ظلال السيوف وان كل من قاتل فى سبيله ولحقه هلاك أو حتوف فهو شهيد حى الدارين منعم فى الجنان مع السبطين السعيدين الشهيدين القمرين النيرين أبى محمد الحسن وأبى عبد الله الحسين وأما من أدبر عن القتال أو تهور فى المقال او احجم فقد باء بخزى من الله ومأواه جهنم وعلى آله و اصحابه الذين لهم فى نصرة هذا الدين المقام المخصوص الممدوحين بقوله تعالى (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

اما بعد فان لهذا المقام شأنا عظيما يبقى حديثه على مر الأيام يرويه أقوام بعد أقوام قد افتخرت به مصرنا وابتهج به قطرنا باجتماع جيش عساكرنا المنصور والمتطوعين من العربان وأهالى القطر راجين نيل الثواب والنصر من الغفور ايد الله شوكتهم وقوى صولتهم وجمع كلمتهم وأيد نصرتهم وثبت اقدامهم وحسن ايامهم ونشر بالنصر أعلامهم ومكن فى رقاب الانكليز حسامهم وجعلهم لحماية الدين ركنا مكينا ولحفظ الاوطان حصنا حصينا اينما سلكوا ملكوا ولاعدائهم الانكليز البغاة اهلكوا يملأون قلوب الاعداء رعبا ويذيقونهم نكالا وطعنا وضربا بصواعق السواريخ والمدافع وإمطار البنادق من غير معارض لها ولا ممانع وبوارق السيوف الساطعة فى سواد الدخان والغباء وحوافر الخيول السابقة التى ليس لاحد منها فرار ولا قرار والصفوف الهائلة رؤيتها الشديدة وطأتها طووا بخيولهم السوابق بساط الارض وانزلوا طواغيت الكفر من شامخ عال الى حضيض وجاء الحق وزهق الباطل وعمرت المساجد وكسرت الاصنام العواطل لا يهزم لرجال جيشنا علم ولا تتزلزل لهم قدم ولا يدخل نظم جمعهم اختلال ولا يطمع فى تفريق كلمتهم عدو محتال فهم لأعدائهم قاهرون وعلى جميع الكفار ظاهرون وفى حروبهم مؤيدون منصورون غالبون فرحون مستبشرون باحمد الذى نظم امرهم ورتب جيشهم وثبت اقدامهم واستنبت غراسهم عرابى وقتنا وزينة مصرنا وحامى قطرنا وامان بلادنا وديارنا ادام الله نصره واذاق المعتدين بأسه وقهره ووفقه لاجراء الخيرات وإزالة المنكرات وواصل عليه من اخبار النصر المتجددة المسرات فى سائر الاوقات لازال النصر والسعد له خادما والظفر بابوابه

ملازما واهالى القطر جميعا باسطه اليه اكف طلبها والاعداء لابسة منه ثياب خوفها ووعيها تجلى عليه مولاه جل علاه بالفتح والنصر المبين قال تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وقال النبى (رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها)[١] .

(ومنها خطبة للشيخ الخطيب محمد فتح الله)

قال فيها :

الحمد لله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا الى دار القرار لا إله الا هو الرحمن الرحيم فسبحانه من إله فرض على المؤمنين الجهاد وبين به سبيل الهدى والرشاد احمده سبحانه وتعالى اذ جمع هذه الجموع لمصادمة اعدائهم ولو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له المتعالى عن المشاركة والمشاكلة حسبما دل الدليل القويم واشهد ان سيدنا محمدا رسول الله وصفوته من عباده وحبيبه الذى جاهد فى الله حق جهاده والمرسل بالدين الحق والصراط المستقيم اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبى الكريم والرسول العظيم ذى القلب الرحيم سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الذين أتوا ربهم بقلب سليم .

عباد الله ان الله تعالى قد فرض الجهاد على المؤمنين من عباده ووفق له من اراد من أهل محبته ووداده ووعد عليه الجزاء الجزيل الجسيم فابذلوا أيها المؤمنون فى الجهاد انفسكم وأموالكم ﴿يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وحرضوا قلوبكم على الجهاد فى مرضاته وجاهدوا فى سبيله لاعلاء كلماته يغفر لكم من ذنوبكم وينقذكم من عذاب اليم وابشروا بالنصر فقد وعدكم الله به فى الكتاب المبين حيث قال تعالى ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وذلك بالفضل لا بالتحتيم واعلموا ان الله قد اجزل للمجاهدين الفضل والمنة اذ قال ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يشربون فيها من الرحيق والتسنيم[٢] فاستعدوا رحمكم الله للجهاد لما وعدكم الله به ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم وارغبوا فيما اعده الله للمجاهدين من

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .
(٢) من أكبر درجات الجنة .

الأحسان فى قوله تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم واصبروا على مشقات الجهاد ليجزيكم بها يوم العرض وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين بالفيض العميم . وايقنوا ان النصر مع الصبر وان المخرج مع اشتداد الكروب يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة على شدائد الحروب لتفوزوا من الله بجنات النعيم ولا ترهبوا كثرة تعداد الكافرين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ولا تقنطوا من رحمة الله عند طول خطب جسيم واعلموا ان قتلى الغزاة احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون والمتخلفون عن الجهاد لهم عذاب اليم فهنيئا لمن بذل فى الجهاد نفسه وماله وقد وفقه الله اليه واصلح باله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١] .

قال عليه الصلاة والسلام (لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما تطلع عليه الشمس)

ومنها خطبة لعلى افندى غالب من ملازمى (برنجى الاى بياده)

قال فيها :

الحمد لله الذى عم بلادنا بنور نقتدى به الى طريق الحق والايمان وجعله سببا موجبا لصد المعتدين اولى البغى والطغيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاهد فى مرضاة الله حق الجهاد وعلى آله واصحابه الذين سلكوا منهج العدل بين العباد وبعد فانه يتعين علينا معشر رجال العسكرية والامة المصرية ان نقدم مع الاحترام واجب الشكر ومزيد الامتنان لحضرة حامى الديار القائم بمصالحها أناء الليل واطراف النهار الا وهو سعادة احمد باشا عرابى ناظر الجنود البرية والبحرية ايده الله واكمل له ما يتمناه ونثنى كل الثناء على ما اتصف به من الكمالات النفسية والاخلاق الذكية التى ملئت بها قلوب الخاصة والعامة من ابناء وطننا سرورا وسارت بها الركبان فى ارجاء المسكونة تنشر منها عنبرا وعبيرا .

---

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ، ص١٩٦ ـ ١٩٧ .

الى ان قال فى المديح :

وإن من أكبر مآثره علينا انه هو السبب الوحيد فى حل اعناقنا من سلاسل العبودية وختم مقاله بالدعاء للممدوح وللجيش .

(ومنها خطية للشيخ ابو الفضل ايضا)

قال فى مطلعها :

الحمد لله الذى رفع كلمة التوحيد والايمان وخفض كلمة الشرك والبهتان الى ان قال : ومصرنا هذه قد كادت ان تكون دار حرب لا دار سلام فقد أهين فيها الوطنى وعظم اللئام حتى صاروا رؤساء الدواوين فطغوا وبغوا وحل بهم المثل السائر وعلى الباغى تدور الدوائر فحكموا بالبنود والقوانين فعظم البلاء واشتد وزاد الكرب واحتد وكان ما علمتم من الحركات وكم لله فى الحركات من بركات . أ هـ .

(ومنها منظومة للشيخ أحمد سيف البارى)

قال فى مطلعها :

الى مَ يسوء فعل الجاهلينا　　　وتمنحهم بفضل الجاه لينا

وفى المديح :

اذا ما راية رفعت لمجد　　　تلقاها عرابينا يمينا

(ومنها منظومة اخرى للشيخ السيد المرصفى)

قال فى مطلعها :

يا صاح قم واشكر الهك واحمد　　　فالدين منصور على يد أحمد[1]

وهكذا كانت المقالات والخطب والقصائد تتلى وتلقى فى مجالس المصريين ومنتدياتهم من غير انقطاع تحميسا للأمة وتشجيعا ومنها قول بعضهم معرضا بذكر ولسلى وسيمور فى بيت السموأل :

وانا لقوم لا نرى القتل سبة　　　اذا ما رآه ولسلى وسيمور

---

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

الفصل الثالث

(فى النهى عن تعليم أولاد السفلة العلم)

لانهم يتخذونه آلة لتضليل العامة والتلبيس على الناس باخفاء الحقيقة . ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام قليل أو ابتسامة أمير اضلهم الله على علم فهم لا يهتدون .

مصداق ذلك ان الشيخ حمزة فتح الله[1] الإدكاوى نسبة الى ادكو ضيعة حقيرة كائنة بين رشيد وأبو قير على ساحل البحر المتوسط أغلب أهلها (حاكة) وصيادين والشيخ المذكور كان حائكا ابن حائك تعلم العلم ثم تركه وانقطع الى فن الصحافة فأنشأ جريدة البرهان[2] ثم ذهب مع الخديو الى الاسكندرية حين تحيزه الى الانجليز فانشأ مقالة مفتراة نشرتها جريدة الاعتدال[3] التى انشئت اذاك ضمنها من الاكاذيب ما يعجز عنه مسيلمة الكذاب قال فيها :

ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا[4] . عباد الله لستم تجهلون اننى طالما ناديت فى البرهان (جريدة) لان لا سبيل لنجاح الأمة الاسلامية سوى اقامة الدين المبنى على مكارم الاخلاق والذى من مقتضاه حسن المعاملة والرفق بالذميين والمستأمنين والمعاهدين والصلحيين وهم الاقسام الأربعة التى قدمنا ان جميع الاجانب فى البلاد الاسلامية لم تخرج عنها .

---

(١) ولد بالاسكندرية عام ١٨٤٩ وهو ينحدر من سلالة مغربية ، والتحق بالأزهر وأتم دروسه به ثم انكب على دراسة الأدب واللغة ومن أبرز مؤلفاته فى ذلك المواهب الفتحية ثم انقطع بعد ذلك الى فن الصحافة .
انظر محمد كامل الفقى : الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة جـ ٣ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية بالازهر الطبعة الاولى ١٩٥٦ ص ٤٧ .

(٢) البرهان جريدة سياسية كانت تصدر بالاسكندرية يوم الخميس من كل اسبوع باسم معوض محمد فريد ومحررها حمزة فتح الله .

(٣) الاعتدال جريدة سياسية كانت تصدر بالاسكندرية مرة فى الاسبوع ، وانتقلت لمصر ، وصارت تصدر كل اسبوعين لصاحبها الشيخ حمزة فتح الله محرر البرهان وكان خطة هذه الجريدة حث رجال الثورة العرابية عى الهدوء والركون الى طاعة الخديو .
انظر قسطاكى الياس عطاره : تاريخ تكوين الصحف المصرية ، الاسكندرية ، مطبعة التقدم ١٩٢٨ ص ٢٦٠ .

(٤) كان الشيخ حمزة فتح الله من معارضى العرابيين ومن الموالين للخديو ومناصريه عليهم ، فحمل فى جريدتى البرهان والاعتدال حملات متكررة على العرابيين ملقبا اياهم بالسفهاء إذ قال «ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا» وهاجم عرابى واتهمه بالغرور ثم نادى بمؤازرة الخديو وعدم الخروج على طاعته .
انظر على سبيل المثال : البرهان عدد أول ديسمبر ١٨٨١ .

ومن مقتضاه ايضا اعداد ما يستطاع من القوة ومن رباط الخيل وانه لا ريب فى انه يدخل فى القوة المدافع وغيرها من انواع العدد الحربية الجديدة المناسبة لكل زمان ومكان وكذا جميع ما يتصور العقل ان فيه نكاية للخصم .

غير انه لسوء الحظ كأن تلك الآية الكريمة الآمرة باعداد ما ذكر انما نزلت على خصوص الاجانب فعملوا بها دوننا ورفضناها نحن كغيرها من شعائر ديننا وحدود ربنا تبارك وتعالى حتى بلغ من تضلع البغاة الجهال من الفنون الحربية وخبرتهم بطرق النكاية للعدو أن يقابلوا الآلات الانكليزية الحربية الحديثة العهد المصنوعة منذ شهور أو أسابيع بآلات عتيقة مضى عليها من الأجيال ما أكلها به الصدأ فآواه ثم آواه ولكن هو الجهل حتى ينبح الكلب مولاه ويرمى بالحصبا الشهاب اذا انقضًا .

فلو اننا فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية والحالة هذه وانها بأمر الخليفة الاعظم أو نائبه الخديو الأكرم لوجب شرعا مخالفة أمرهما بها لانها حينئذ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد .(يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بلا قتال) .

وقد نهانا الله تعالى عن ان نلقى بايدينا الى التهلكة فكيف وهذه الحرب كما قدمنا شيطانية ناشئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية كما سيأتى بيانه وعن الجنون الذى تظاهر به الآن عرابى تخلصا من سوء العاقبة وان كانت افعالها كلها جنونا محضا من البداية للنهاية على ان الحروب الدينية المرضية فى الحقيقة لله ورسوله لا يتحتم نصر أربابها أذ لا يجب على الله تعالى شىء وتلك سنته عز وجل فى المرسلين والأنبياء ان تكون الحرب بينهم وبين اعدائهم سجالا اى تارة لهم وتارة عليهم وانكانت[1] العاقبة لهم بلا ريب وما ذلك الا لتقتدى الأمم باعمالهم فيبنون المسببات على الاسباب لأن للشرائع السماوية خصوصا الشريعة المحمدية المطهرة تشوقا زائدا لذلك اى لابتناء المسببات على أسبابها حرصا على الأمة ان تغلق باب الاسباب فيختل نظام هذا الوجود ويبطل العمران وان كان الكل من الله واليه وهو خلقكم وما تعملون .

فاما الآن فقد سد باب الخوارق والمعجزات اذ قد ختمت النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام . «فاه الرجل بالحق بعد شططه»[2] .

---

(١) صحتها وان كانت .

(٢) يقصد عرابى به الشيخ حمزة فتح الله كاتب المقال .

واما الكرامة فلم ينصر بها الحسين عليه السلام ولا غيره من البضعة المقدسة مع الاجماع على كونهم على الحق (لنا بهم أسوة حسنة) ولعل عرابى يزعم انه اكرم على الله من الحسين وأضرابه (كلا فان الفرع لا يعلو على اصله) ويا عجبا لهذا الجاهل كيف خاطر بدماء المسلمين وأعراضهم وبلادهم (جهل الشيخ ان الحرب واجبة شرعية اقرها مجلس عالى تحت رياسة الخديو توفيق ودرويش باشا المندوب السلطانى فلا لوم على الجاهلين) استنادا على خرافات المنام واضغاث الاحلام (قد خرّف الشيخ ولا لوم عليه) فاستمال بذلك عقول الجهال وفتح باب الحرب مع الاجانب بعد شدة نهى الخليفة الأعظم ونائبه الخديو الاكرم عنها ومع انه ليس لديه من القوة سوى ما ينشره من الاكاذيب (كذب الشيخ وافترى) انك يا عرابى لما وقعت فى يدك ويد جهالك الآلات الحربية وصرتم نفس القوة التى من شأنها أن تكون عونا للحكام على تثبيت النظام وردع الاشرار وليس للحكومة اذ ذاك قوة اخرى تكسر بها شوكتكم امتلئت نفسك الخبيثة بالشرور (فتن الرجل وظهر خبثه) فطمعت فى المستحيل وما ليس اليه سبيل واستعملت انت وأحزابك للحصول على ذلك جميع الوسائل ولكنهم صاروا بعناية التوفيق كلما أوقدوا نارا لهذه الحرب اطفأها الله (أشرك الشيخ الضال وصرف الآية الكريمة لغير معناها) حتى اذا اغلقت فى وجوههم المطالب عمدوا الى وسيلة أخرى الا وهى اتهام الجراكسة الكرام ظلما وعدوانا بالمؤامرة على الفتك بعرابى[1] فصار هو الخصم والحكم واكراههم بأنواع العذاب على الاقرار بما نسب اليهم وبأن لهم فيه شركاء هم فلان وفلان لجملة من الاعيان والعائلة الكريمة الخديوية بحيث ان سير الجهادية فى تحقيق هذه القضية كان يشبه سير الوحوش فى البرية لأن تلك المؤامرة لو ثبتت على الجراكسة ولم تكن بقصد الفتك بعرابى بل كانت بقصد الفتك بامبراطور مثلا بالنسبة للأمور الدنيوية او بنبى مرسل بالنسبة للأمور الدينية لكان تحقيقها أخف من ذاك التحقيق (ذلك امر غاب عن الشيخ صوابه وقد تورط فيه من غير ما يدعوه أحد اليه) وأراك ياعرابى لو أصبت يوم حرب الاسكندرية زورقا للانكليز فضلا عن سفينة مما زعمته احزابك لكبرت نفسك عن دعوى النبوة فكنت تدعى الألوهية ولا تعدم من يؤمن بك من الجهال نعم انك قد اكتسبت الشهرة الفاسدة باعمالك غير أن لك فى ذلك أمثالا كثيرين منهم إبليس

(١) يقصد مؤامرة الجراكسة ضد العرابيين .

اللعين[١] وعاقر الناقة[٢] الذى هو أشقى الأولين وابن ملجم[٣] اشقى الآخرين فان كان فى شهرة هؤلاء شرف لهم فانت ايضا كذلك (وقع الشيخ فى أمثاله واظهر فساد علمه وخبث طويته) .

واعلموا ايها المصريون ان زيادة نفوذ الاجنبى فى بلادكم تكون بقدر ما يخسره فى شأنها من الدماء والأموال بمعنى انه لو انفق عليها من المال درهمين وأراق فيها من الدم قطرتين كان نفوذه عليها اكثر مما لو انفق درهما واحدا أو قطرة واحدة وهكذا كلما زاد فى الخسارة زاد فى النفوذ .

فان كان لكم ما تخافون عليه من دين وعرض ومال ووطن فقللوا تلك الخسائر ما استطعتم لتأمنوا على ذلك . وها هو تقليلها فى أيديكم ولا وسيلة لذلك سوى ان تتحد كلمتكم على ارجاع البغاة عن اعمالهم أو القبض عليهم أو التخلى عنهم ليستسلموا أو يفروا فتستريح منهم العباد والبلاد

(أفبمثل تثبيطات هذا الشيخ وخزعبلاته تسود الأمم وتقهر الاعداء)

ويا علماء المصريين قد نطق القرآن الكريم بأخذ الميثاق على العلماء أن يبينوا للناس الكتاب ولا يكتمونه وبأن الفتنة لا تصيب الظالمين خاصة بل تعم الجميع والحديث الصحيح بان الخطيئة اذا اخفيت لا تضر غير صاحبها واذا ظهرت ولم تغير أضرت العامة وأى خطيئة اعظم من اعمال الجهادية التى يترتب عليها خراب البلاد واتلاف العباد فى سبيل الشيطان الرجيم .

فيرحمكم الله لماذا كتمتم النصيحة للبغاة الجهال ولماذا لم تغيروا الخطيئة كى لا تضر العامة وتضركم فى الجملة (قد جاء الشيخ يرشد اساتذته ويعلمهم احكام الدين فكان فى ذلك كناقل التمر الى سكوت) ام هل تنتظرون ان يصيبكم ما أصاب اهل

---

(١) هو ابو الجن ، وكان بين الملائكة واسمه عبد الرحمن ، ولكنه أبى فامتنع عن السجود لآدم وتكبر ، وقال أنا خير من أدم فكان من الكافرين .

انظر سليمان بن عمر : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية جـ ١ ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) عاقر الناقة هو قدار بن سالف من قوم ثمود وقد كمن للناقة فى أصل شجرة فى طريقها التى تمر بها فرماها فقطع عضلة ساقها فوقعت وأحدثت ورغت رغاءة واحدة ثم نحرها .

انظر تفسير الصاوى على الجلالين جـ ٤ ، القاهرة دار إحياء الكتب العربية ص ١٢٦ .

(٣) ابن ملجم هو عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على بن أبى طالب .

اسكندرية عافاكم الله من ذلك فلو شاهدتم ما شاهدناه حال المهاجرة وكانت قلوبكم اقسى من الصخور ودموعكم اكثر من البحور لذابت قلوبكم ونضبت دموعكم وماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم حاملا ادركها المخاض فى الطريق فعمدت الى حفرة فى الارض فدفنت جنينها بالحياة لتكتفى مؤنته وتنجو بنفسها وتتمكن من سرعة السير ثم لم تتجاوز تلك الحفرة بقليل حتى دهمها الجندى العرابى فكشف عورتها وجردها من الحلى والحلل ثم لم يكتف بذلك حتى راودها عن نفسها فان أبت اطلق عليها الرصاص من البنادق المنهوبة وتركها مضرجة بالدماء مكشوفة العورة فريسة للهوام موطئا للاقدام وهى فى أثناء ذلك تصرخ بالشهادتين وتنادى بكلمة الاسلام وتسمى نفسها وتقول هل انتم تحاربون الانكليز أو المسلمين والمسلمات فلا يرحمها الجندى ولا يرثى لحالها .

(لقد تورط الشيخ المفتون وشهد شهادة زور وبهتان ثم اردفها بقذف خالد فى بطون الدفاتر والتواريخ وظن انه انما ينشر مؤتفكاته على قوم لا يعقلون . ولم يدر الشيخ المفتون أنه لا يتصور عقلا مراودة امرأة ساعة وضعها ودم النفاس يتدفق من فرجها على ملأ من المهاجرين المزدحمين فى الدروب والكل فى حالة حزن واسف ولم يبال بما الشيخ اقترفه من شهادة الزور وقذف الابرار يحسب ان ذلك هينا وهو عند الله عظيم سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم وافك مبين)

ثم قال الشيخ المفتون يخاطب العلماء : ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم المسلمات السيدات المصونات اللاتى لا يعرفن غير القصور مثوى ولا سوى الخدور مأوى وقد طاشت عقولهن وزهقت نفوسهن وفاضت عيونهن وذهلن عن الرضيع والمريض والمقعد . والخف والقناع والازار والخمار فهتكن الاستار وبرزن من الديار مكشوفات الوجوه حافيات الاقدام بلا شراب ولا طعام . حتى اذا أعياهن المسير وقل النصير وكثر الازدحام وتورمت منهن الاقدام واشتد بهن الشقاء من شدة حر الرمضاء قضى عليهن فى الطريق .

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم مائتى الف من المسلمين والمسلمات أفزعهم عرابى وأكرههم على المهاجرة فى زمن لا يتجاوز الساعتين حينما اضرم النيران فى البلدة بقصد سريان الحريق الى جميعها من جهاتها الاربع[1] . (تحقيقات المجالس تثبت كذب

(١) أوضحنا قبل ذلك أن عرابى لم يشارك فى حريق الاسكندرية بل أن هناك ايادى أخرى كثيرة شاركت فى إشعال هذا الحريق .

الشيخ فلا نتكلف الرد عليه فى ذلك) ثم قال ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم امرأة تحمل طفلين وتجر اربعة وتقود فقيها أعمى حتى اذا اعياها المسير والاطفال يصرخون جوعا ويلهثون عطشا تركت من يعجز منهم عن المشى أو تعجز هى عن حمله فيموت تحت الاقدام فى ذلك الزحام (لعل الشيخ انقذ تلك العائلة المسكينة حين شاهدها على تلك الحالة) .

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم مخدرة من المسلمات تنادى على بنتها العذراء من يستر هذه الفتاة لوجه الله الكريم خشية ان يُزيل العرابيون بكارتها كما فعلوه فى ألوف من المسلمات ثم تختم هذه المرأة كلامها قائلة أما أنا فانى استطيع المدافعة عن عرضى حتى افارق الحياة .

(قد يتجاهل الشيخ أو جهل قول الله تعالى (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) ثم قال ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم امرأة وزوجها وقد أدركهما الليل فى جهة الرمل فجلسا للاستراحة فقالت المرأة لزوجها هات الغلام لارضعه فقال اى غلام قالت ولدنا فلان قال الم تحمليه معك ثم تبين انهما تركاه بمنزلهما

(تذكر الشيخ المفتون يوم ينفخ فى الصور فتذهل كل مرضعة عن ما أرضعت فاتى بهذه الاكذوبة من مخيلته وما شهد ذلك يقينا) .

ثم قال ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم رجال الضبطية الآن وهم يستدلون بما يتصعد فى بعض الاماكن الاسلامية على من فيها من الموتى فيفتحوا ابوابها فيجدوا فيها ما لا يحصى من الأطفال والرجال والنساء الذين تركوا يوم المهاجرة لضعفهم أو للذهول عنهم فماتوا وانتنوا (ان صح هذا فلم لا يكون من مقذوفات العدو) قال و . . . جملة القول انكم لو شاهدتم بعض ما شاهدناه من مصيبة المسلمين ورزية المهاجرين لهجرتم الرقاد ولازمتم السهاد وانما ذكرت لكم من ذلك قطرة من بحر .

(وما ذكر والله الا زورا وبهتانا مقابل طعمة يطعمها) .

ثم قال يرحمكم الله كيف ساغ لكم ان تقروا البغاة الجهال على المجاهرة بعصيان الخليفة ونائبه والمخاطرة بالمسلمين وبلادهم فى نظير شهوة عرابى النفسانية وأغراضه

الشخصية أعنى عدم قبوله النفى مع حفظ رتبه ونياشينه ومرتبه الذى لم يكن يحلم بمثله فى المنام ثم لما أطلقت الكلة الأولى[١] من مراكب الانكليز امتلأ قلبه رعبا وفر من حينه الى ابعد مكان عن المرمى فى زعمه ثم لم يلبث هو وجنوده ان انهزموا شر هزيمة الى كفر الدوار فمنعوا الماء عن المسلمين وحجروا عليهم الرجوع الى اوطانهم وعاثت عساكره فيهم قتلا ونهبا وفسوقا وفجورا كما سبق ذكره

(نترك الجواب على خزعبلات الشيخ واكاذيبه الى المحتاطين بها)

ثم قال فيرحمكم الله ما هذا التوانى عن ردع ذلك الباغى ولستم تؤملون منه سوى ان يفر اليكم منهزما ويسوق امامه مهاجريكم بعد ان يحرق الديار ويهتك عرض الاحرار والعذارى الأبكار ويستعمل رجالكم فى استحكاماته الوهمية ونسائكم فى فسوق جنوده الجاهلين فاقلعوا عن هذا التوانى ولا تستبدلوا الخبر بالعيان ولا تغتروا بما يذيعه فهو افك وبهتان .

(قد أكثر الشيخ من الزور والكذب والبهتان وقذف الاحرار والحرائر فلو كانت الحكومة اسلامية غير احتلالية لعلّموه علماء الاسلام كيف يخالف أحكام القرآن وأذاقوه مرارة حد القذف وردوا شهادة هذا الوغد الزنيم فلا تقبل له شهادة ابدا ولأذاقوه العذاب الاليم)

ثم أظهر نفاقه وتغريره وجهله بالسياسة بقوله ولا ازال اقول لكم ان الانكليز لا قصد لها سوى اعادة الراحة واخضاع الجند للحاكم الشرعى نائب امير المؤمنين . وان الجناب الخديو هو على الجانب العظيم من التقوى والدين .

ولستم تجهلون ان ديننا المحمدى قد يكون تأييده على يد غير ذويه ولا تجهلون ايضا ان الجناب الخديو ليس اول من نصر بغير ذوى دينه[٢] بل ان لذلك سوابق كثيرة وقعت لبعض خيار الأمة الاسلامية ولو لم يكن من ذلك سوى ما وقع للاستاذ القطب سيدنا ابى الحسن الشاذلى استاذ ابى العباس المرسى رضى الله عنهما لكفى فى الدليل .

---

(١) يقصد قذيفة المدفع الأولى .

(٢) حاول الشيخ حمزة فتح الله فى هذه المقالة اثبات ان الحرب مع الانجليز ليست دينية .

وحاصل هذه القضية ان ابا الحسن قدم الى هذا الثغر السكندرى ليلا وهو لا يعرف فيه احدا واشتدت حاجته الى مكان يأوى اليه مع اتباعه ولم يوفق أحد من المسلمين لذلك حتى استضافه يهودى من أهل الذمة وبالغ فى اكرامه فوقع فى نفس الشيخ شىء من ذلك فنودى يا أبا الحسن ليس الشأن من ينصر باحبابه انما الشأن من ينصر باعدائه .

(ظهر للشيخ المفتون ان الله تبارك وتعالى ترك دينه غير كامل فجاء هذا الشيخ الجاهل يكمله باقاصيص خرافية تنسب الى السيد ابى الحسن الشاذلى الشك فى قدرة الله تعالى ووصم المسلمين بالبخل وعدم المروءة وعلى فرض صحتها افتكون دليلا على ان الحاكم المسلم يستعين على قتال أمته بغير أهل دينه كلا وآلف كلا .

وانما كانت ضالة الشيخ ان يكون مستخدما فى ديوان المعارف جزاء كذبه وبهتانه وقذفه فى أعراض المسلمين وقد تحصل على بغيته التى ما كان يحلم بها على ان علماء أهل الكتاب من الاسرائيليين والمسيحيين نزهوا انفسهم عن ذكر تلك الأكاذيب والترهات والنقائص التى لم يكن لها ظل من الحقيقة ويكفى لتفنيدها ان بطريرك الاقباط وحاخام اليهود جاهرا بها فى المجلس العام بوجوب المدافعة عن الوطن وبتوفيق الخديوى لانحيازه الى العدو المحارب لبلاده بحضور امراء العائلة الخديوية وعلماء الامة واعيانها) .

وقال الشيخ المفتون فى مقالة ثانية له
كما فى مصر للمصريين ص١٨٩ جزء ٥

ان من تأمل حق التأمل فيما كان يصدر عن عرابى من المكاتبات فى الجرائد الرسمية وفى ما يكتب فى غيرها عن افكاره وفيما تكتبه الجرايد المحلية التى تعتبر كلسانه يتضح له جليا انه كما خرج عن طاعة مخدومه الجناب الخديو خروجا صريحا فكذلك خرج عن طاعة امير المؤمنين خروجا صريحا أيضا .

أما خروجه عن طاعة الأمير الذى هو الجناب الخديو فظاهر للعيان لا يختلف فيه اثنان واما خروجه عن طاعة الخليفة الأعظم فانه وانكان[١] مترتبا على خروجه عن طاعة

(١) صحتها وان كان .

الامير لما تقتضيه البداهة من أن الخروج عن طاعة التابع خروج عن طاعة المتبوع غير انه زيادة على دلالة الالتزام هذه قد كشف القناع سابقا ولاحقا عن نبذ طاعة الخليفة وصرح بذلك فى تلك المكاتبات تصريحا جليا لا يحتمل التأويل وانطبقت تحت اعماله على اقواله بحيث انهُ قد جمع فى المخالفة بين القول والعمل ولعمرى ان ذلك المقام لمهم جدا لا سيما للآستانة العلية فليتدبره اولو الالباب إذا شئت ايها القارئ توضيح مخالفته فى القول والعمل لأمير المؤمنين فاليك البيان .

بيان مخالفته قولا لأمير المؤمنين

نقتصر الآن فى اثبات ذلك على رقمين اثنين صدرا من عرابى وادرجا فى الوقايع المصرية التى هى الصحيفة العربية الرسمية احدهما فيما يختص بالتلغراف الوارد من الحضرة الشاهانية للخديو الاعظم بتوقيف اصلاح الطوابى حيث صرح عرابى فى ذلك الرقيم بان توقيف اصلاح الطوابى معلق على اقلاع الأساطيل الاجنبية وخروجها من مياه الاسكندرية والدليل على ذلك انه لما لم تخرج الاساطيل عاد الى اصلاح الطوابى وزاد عليه تركيب المدافع فوقها لان ذلك التركيب لابد وان يكون بعد اصلاح خلل الطوابى المنهى عنه اذ لا يتصور عاقل ان تركيب المدافع فوق طوابى خربة مختلة البناء فقد فعل ما نهى عنه وزاد عليه ذلك التركيب هذا مع ان النهى السلطانى عن اصلاح الطوابى ليس معلقا على خروج الاساطيل ولا على شىء البتة .

(وهل اذا كانت البلاد عارية عن الاستحكامات والمعاقل أفلا يصح انشائها وتسليحها لمدافعة العدو الطامع فيها الواقف على ابوابها)

قال الشيخ المذكور بمقالته الاولى بجواز مخالفة امر الخليفة وامر أمرائه فى الحرب الدينية لأنها عبارة عن مخاطرة بالبلاد والعباد .

وعلى ذلك أفلا يكون فى ترك الاستعداد وتحصين الثغور الاسلامية مخاطرة على العباد والبلاد تجيز مخالفة الخليفة وامرائه ان كانت هناك مخالفة .

قال واما الرقيم الثانى فهو ما أدرج فى الوقائع ايضا فى صورة الرد على الطائف فيما نقله عن مكاتب (ستندارد) من ان عرابى يعتبر العساكر العثمانية اذا حضرت الى هذا

الطرف كعساكر اجنبية حيث صرح أيضا فى الرقيم المذكور بانه لا يتصور فى العقل ارسال عساكر عثمانية وان الباب العالى لا يسعه ارضاء دولة اجنبية بذلك[١] .

(قال الشيخ المفتون فى شرح هذه الجملة)

وتوضيح كون ذلك الرقيم دليلا على مخالفته للحضرة السلطانية واصراره على معارضة عساكرها ان جعل فيه ارسال العساكر العثمانية من قبيل المستحيل العقلى وانه على فرض وقوعه يكون متمحضا لارضاء دولة اجنبية اى لا سبب للارسال غير ذلك الارضاء يعنى واذا كان كذلك جازت له معارضتها اى العساكر الشاهانية هذه نتيجة ذلك الرقيم وبما أوضحنا يظهر جليا أن عرابى قد أقر فى ذلك الرقيم بصحة ما اراد تكذيبه فليتأمل العاقلون .

هذا وان عرابى لم يحمله على تستطير هذا الرقيم بهذه الصورة التى أسلفناها سوى انه رغب ان يستميل بذلك حزبه الى مشاركته فيما أصر عليه من معارضته العساكر العثمانية فجعل لهم تلك النتيجة التى أوضحناها محللا لما حرم الله تعالى لما شاهد منهم أو من معظمهم العزم على عدم معارضة العساكر الشاهانية كما سمعناه من كثير من اعيان ضباطهم كما ان ذلك هو الذى اوجب شراهته الى محاربة الانكليز لا لاعتقاده ان عموم الطوابى المصرية فى امكانها مقاومة اسطول اقل الدول الاجنبية لأن ذلك مما لا تجهله المجانين بل لكونه يروم مجرد المحاربة مع دولة أجنبية لكى يوهم جهلا الامة ان ذلك من قبيل الحرب الدينى وانه اذا جاءت عساكر عثمانية تكون ولابد لاعانة تلك الدولة الاجنبية التى فتح معها الحرب فتعتبر كتلك الدولة المحاربة فتباح والحالة هذه معارضتها . هذه هى مناورة عرابى فى تلك الحرب .

وشرح رموز رقيمه الثانى فيما يظهر لفهمنا القاصر ولعل ذلك هو الذى أوجب تأخير ارسال العساكر العثمانية الى الآن فان هذه المناورة من مشكلات السياسة التى تزل فيها الاقدام وتحار العقول ويلزم لها التروى والتدبر فلا يظنن أحد ان خليفة المسلمين قد اضاعنا سدى أو أهمل امرنا ولقد وضح بما قررناه ان الباب العالى غير راض عن أعمال عرابى أو عن شىء منها (كذب الشيخ فان الخليفة قد اضاعنا واضاع نصف بلاد الدولة) .

---

(١) يقصد بها انجلترا .

(بيان مخالفته فعلا لأمير المؤمنين)

قال الشيخ المفتون مرادنا بهذه المخالفة الصريحة كما أسلفنا وتوضيح ذلك ان عرابى فضلا عن تركيبه المدافع على طوابى الاسكندرية بعد اصلاحها ضدا للأمر السلطانى السابق ذكره قد فتح باب المحاربة مع الاسطول الانكليزى بعد ان نهاه دولتلو درويش باشا عن ذلك وبالغ فى نصيحته ولما يئس منه أمره بأن لا يجيب مدافع الاسطول بالضرب اذا ابتدأته بذلك . وسر هذا الأمر ان عدم اجابته لها يترتب عليه اخلاؤه من المسؤولية وامتناع الاسطول عن التمادى فى ضرب الطوابى وبذا كانت تنحسم مادة الشرور غير أن ذلك لما كان لا يحصل به مقصوده من فتح باب المحاربة مع دولة اجنبية ليبنى عليه ما سبق شرحه قد جاهر بالمخالفة كما أنه لما تهدمت جميع الطوابى بعد عشر ساعات من الضرب واتلف فيها نحو ٤٥٠ مدفعا ومقدارا عظيما من العساكر بدون أدنى ضرر للأسطول تقرر فى مجلس النظار بحضور درويش باشا وحضوره عدم اخلاء طابية الدخيلة والعجمى والمكس فاخلاها وخرج بالعساكر الى كفر الدوار وترك البلدة فى حالة النهب والتحريق لامكان فيها للمسلمين والاجانب . فاضطر الخديو منهُ لذلك إلى اجازة نزول العساكر الانكليزية إلى المدينة فانحسم ذلك الأمر والبلدة للآن فى طمأنينة وأمان وقد منع المواصلة وإعادة المهاجرين مع ما يقاسون من عساكره من انتهاك اعراض الأحرار وافتضاض الأبكار وسلب حلى النساء وقتل من تخالفهن وموت الاطفال والضعفاء تحت الاقدام وغير ذلك .

(تقدم تفنيد تلك المفتريات والاكاذيب)

ثم قال الشيخ المفتون فهذا ايها القارئ بيان مخالفته عملا لأمير المؤمنين فتدبره حق التدبر ان تقرر ذلك لم تبق لعاقل ريبة فى براءة الباب العالى عما نسبه اليه عرابى من اغرائه على مخالفة الامير أعنى الجناب الخديو ومعاذ الله تعالى ان يتصور عاقل ذلك كما انه لا يسع عاقلا بل ولا من كان فى قلبه ذرة من الايمان ان يعتقد أو يظن ان ذلك الحرب من قبيل الحروب الدينية إذ قد ثبت بما ذكرناه انه ليس بامر الخليفة ولا بأمر نائبه الذى هو الخديو الأعظم وانما وقع ذلك الحرب لمجرد منفعة ذاتية موهومة ألا وهى شخص عرابى ليس الا لامتناعه عن الخروج من القطر المصرى مع حفظ نياشينه ورتبته ومرتبه فآثر منفعته الشخصية على خراب البلاد ودمار العباد ولو فرضنا ان بعض علمائنا

افتاه بأنه حرب دينى فلا نقدح فى ذلك المفتى وانما هو كما يقال الفتوى على قدر السؤال ولو علم ذلك المفتى ان حقيقة الحال هى كما ذكرنا وان بلادنا لا طاقة لها الآن بحرب أدنى دولة أجنبية لا برا ولا بحرا وانه ليس عندنا من الاستعدادات الحربية وغيرها شيء يذكر وان الحرب والحالة هذه محض مخاطره بالعباد لغرض شخصى وان الجناب الخديوى على الجانب الاعظم من التقوى والديانة وحب الوطن وساكنيه والخبرة التامة بحقائق الامور ودقائق السياسة وان هذه الحرب قد نهى عنها الخليفة الاعظم ونائبه الخديوى الأكرم وان نفس أمير المؤمنين اعلن عصيان عرابى ومخالفته القرآن الكريم وان الانكليز لا يقصدون التغلب على بلادنا ولا التداخل فى أمورنا وانما يقصدون الزام الجهادية بالامتثال للقرآن الكريم فى طاعة أولى الامر الواجبة شرعا . لما وسعه الافتاء بكون هذه الحرب دينية . فل يتق[1] الله امرؤ يعلم انه ما يلفظ من قول الا وعنده رقيب عتيد وان اهراق دماء الوف المسلمين والذميين ونحوهم فى غير مرضاة رب العالمين بل فى شهوة عرابى وحزبه من اكبر الكبائر (لبّس الشيخ الضال على الناس ومود الحق بالباطل) .

قال الشيخ الضال وهذا هو الغرض الذى سقنا لاجله هذا الحديث واطلنا فى توضيحه كما ترى . لعل فيما أوضحته بلاغا لقوم يعقلون وعبرة لأولى الالباب كى يذعنون الى الحق ولا يركنوا الى اكاذيب عرابى وعساهم يعجلون بالقبض عليه أو التخلى عنه ليسلم لهم دينهم ودنياهم واحذروا ان تخدعكم مناورته هذه فقد اوضحنا لكم فسادها شرعا وعقلا فانكنتم[2] ايها المصريون مع ذلك كله فى ريب مما ذكرته ولا تصدقونه الا بالعيان فها هو الوفد الذى انتخبتموه لمشاهدة الحقيقة قد عاد اليكم معظمه وبقى لدينا بعضه فما عليكم سوى ان تؤمنوا من عاد اليكم فيخبركم بالحق وتعيدوا المواصلات التى قطعها عرابى عن الاسكندرية لتسمعوا ممن عندنا وسوى ان تبعثوا الى كفر الدوار من تثقون به فانه يشاهد بكلتا عينيه نساء مهاجرى المسلمين أيامى واطفالهم يتامى وأعراضهم مباحة وأموالهم منهوبة ودموعهم بحارا ودماءهم انهارا فلو أنهم أصيبوا بالطاعون الفادح والوباء الفاضح واطلقت عليهم الوحوش الضارية والذئاب العادية لكانت حالتهم أحسن مما دهاهم من الجنود العرابية واحزاب الجاهلية .

---

(١) صحتها فليتق .

(٢) صحتها فان كنتم .

(كذب الشيخ والله وارتكب ببهتانه اثما مبينا فانه لم يكن فى كفر الدوار شىء مما ذكره وكيف رأى ما ذكره بعينى رأسه وهو محجور عليه فى الاسكندرية)

قال الشيخ المفتون بالله عليكم ان تحسموا ما بقى من الدماء وترحموا تلكم الضعفاء والاطفال والنساء فان أبيتم فما هى إلا أن تجول الخيل جولة والمدافع مرة فيصيبكم ما أصاب أولئك المهاجرين ثم تطلبون العفو فلا تجدون اليه سبيلا .

أما الحضرة الخديرية فهى الآن فاتحة باب العفو اشفاقا على البلاد وشفقة بالعباد وحسما لهذه الفتنة التى كانت نائمة فايقظها عرابى لكنه أبى الكرامة ولا يأباها الاّ لئيم وأصر على عناده وخالف الله ورسوله وأطاع الشيطان الرجيم .

(كذب شيخ السوء والله ما خالفنا كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم بل هو الذى مسه طائف من الشيطان فصار لا ينطق الا بلسانه ولا ينظر الا بعينه ولا يسمع الا بأذنه ولا يمشى الا برجليه يريد ان يضل المسلمين اطاعة الى الشيطان الرجيم)

قال شيخ السوء ولم يزل الى الآن بكفر الدوار والمهاجرون عنده يذوقون ألوان العذاب ويهلك من اطفالهم وضعفائهم كل يوم ما يفوق الحساب .

فهل يا علماء الديار المصرية يسوغ لكم أن تقروا هذا الشقى على اعماله فتقتدى بكم جهلاء الامة واذا كان عذركم فى عدم نهيه انكم تخافون من اضراره بكم فهلا كان الأسلم لدينكم ودنياكم ان تخرجوا من هذه العهدة بالكلية أى لا لكم ولا عليكم وان لا تفتنوه (بل هو المفتون بما يلقيه عليه الشيطان الرجيم) قال شيخ السوء فتضلوا وتضلوا ويجعل فتاويكم آلة لهلاك العباد وخراب البلاد فقد سودتم والله صحيفتكم بهذه المنكرات والاعانة على الفساد .

واعلموا ان ليس لذلك الشقى واعوانه من عدة يركن اليها أو آلات حربية يعتمد عليها أو خبرة بالقتال أو ثبات فى النزال بل ان بضاعته فى ذلك كاسده واراءه وأحزابه فاسدة .

ولما أفلس من هذه البضاعة عمد الى بضاعة الكذب فاذاعه والبهتان فاشاعه واخذ الجهال يلفقون له الاحلام ويختلقون المنام ويكذبون على الله ورسوله وأوليائه ويزعمون انه مؤيد بالروح القدس والملائكة المقربين ففسدت الاحوال وعمت الأهوال بهزيمته فى

حرب الاسكندرية وخذلانه اشد الخذلان اذ ان الجاهلين والذين لا يعقلون من ضعفاء الامة ارتدوا أو كادوا ان يرتدوا عن الاسلام ويتبدلوا الكفر بالايمان لكونهم اعتقدوا صدق تلك المنامات فارتابوا من عدم وقوع مقتضاها وبذا تعلموا ان عرابى قد اضر باعماله المسلمين فى دينهم ودنياهم وانفسهم ولم يعلموا ان تلك المنامات على فرض صحتها قد تعرضت الشريعة المطهرة لحل رموزها وكشف كنوزها وتوضيح خفائها وكشف غطائها .

فان ائمتنا معشر المسلمين وان اتفقت على ان الرؤيا النبوية فى حد ذاتها حق بلا ريب ولا مدخل فيها للشيطان فكذلك اتفقت على انها أى الرؤيا اذا كانت محتوية على أوامر أو نواهى فانه لا يجوز الاقدام على العمل بمقتضاها الا بعد عرضها على معيار الشريعة المطهرة فان وافقتها فذاك والا وجبت مخالفتها وحمل عدم موافقتها للشرع العزيز على تخليط من الرائى لعدم اعتدال مزاجه أو على فساد فى الاخلاط بفرط ما يتصعد من أبخرة الاغذية على غير انتظام فربما تخيل الرائى بسبب ذلك ان الايجاب نفى والامر نهى .

لا على ان الرؤيا فى ذاتها ليست حقة وقد طالما نادينا الاحزاب العرابية بهذا المضمون قبل الحرب الاخيرة وصرحنا لهم باننا لو فرضنا ان الأمة المصرية قد اتفق لها كلها ان ترى منامات نبوية تتضمن امر عرابى بالحرب والوعد بنصرته فانه يجب عليها عدم العمل بذلك (ان الشيخ المرائى لم يكن اهلا لمخاطبة أحد منا)

وبيانه أننا لما عرضنا على الشرع العزيز اعمال عرابى خصوصا فى ما يختص[1] بالحرب وجدنا هذه الأعمال لا تصدر الا ممن عميت بصيرته عن سبيل الرشاد ووجدناها مضادة للشريعة المطهرة على خط مستقيم[2] (ان شيخ السوء أضله الله على علم وعكس مخيلته فصار يرى الحق باطلا والباطل حقا لكونه لا يتكلم الا بلسان الشيطان الرجيم اما الحرب فكانت من دولة أجنبية طامعة فى بلاد اسلامية قد اقتحمت بلادنا برا وبحرا وتقرر امر الدفاع عن البلاد بمجلس عال تحت رياسة الخديوى كما ذكر أولا ثم فى مجلس العموم ثانيا وبذلك فان شيخ السوء يخدم اعداء المسلمين فى مقابل خبزة يأكلها فسود والله صحيفة اعماله وكان وجوده عارا على العلماء المصريين الذين ينتسب اليهم وما هو منهم) .

---

(١) فيما يختص .

(٢) من الغريب أن يضع عرابى هذه المقالات والخطب المضادة له ولثورته ضمن مذكراته .

قال الشيخ المفتون ووجدناها ناشئة عن الجهل والبطر وكفران النعم واضرارا محضا على المسلمين فى دينهم ودنياهم وانفسهم كما اثبتنا لك بيانه فى هذه المقالة ولطالما خشيت على عقلى حينما كنت أجادل الاحزاب العرابية وكنت اقول فى نفسى ياسبحان الله هؤلاء الألوف كلهم مخطئون وانا وحدى مصيب ؟ . . . فلم يفرج عنى الا حينما تذكرت حديثا شريفا معناه ان الحق تبارك وتعالى اذا أراد نفاذ امرا سلب عقول العقلاء حتى ينفذ القضاءفوجب والحالة هذه رفض تلك المنامات على فرض وقوعها هذا فضلا عما أجمعت عليه العقلاء من ان لولوع النفس بالشىء وفرط اشتغالها به مدخلا فى المنامات وقد علم العموم ان العرابيين قد مسهم طائف من الشيطان يسمّى بالحرية[1] وأخر يقولون له (الوطنية) الى ما لا يحصى فكانوا يهتفون بتلك العفاريت فى اليقظة والمنام فهذا ايها العقلاء ما يجب ان تحمل عليه اضغاث الاحلام[2] .

(اخطأ الشيخ فى كل ما أتى به من المفتريات لأن الله سلب عقله ولعله يتوب ويستغفر ربه فيغفر له انه هو التواب الرحيم) .

وكذلك حذا حذو الشيخ المفتون فى الكذب والبهتان شاعر المتحزبين إلى الاعداء وصنيعة المستبدين مصطفى باشا صبحى البوشناقى من سلالة عائلة من أهل بوسنة فى ولاية الروم فقال قصيدته التى سماها (صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال) قال فى مطلعها :

تبين عقبى غيه كل معتدى وامسى العرابى وهو بالذل مرتدى

وهى مائة وخمسة وعشرون بيتا كلها نقائص ومثالب خدمة للاستبداد جزاه الله بما يستحق .

وكذلك فعل اثنان من أقزام الشام احداها اديب اسحاق اللبنانى[1] طمعا فى الاستجداء والثانى قدرى بك الشامى الذى كان مع درويش باشا حتى لا يرجع الى بلاده فاضى الوفاض على ان الخديو أغدق عليه وعلى درويش باشا وولده بالذهب الكثير والجواهر الثمينة قبل وقوع الحرب وفى اثناء تأدية ماموريتهم

---

(١) يصعب قبول القول بأن الحرية والوطنية طائف من الشيطان .

(٢) النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٨٩ ـ ١٩٣ .

(٣) أديب اسحق صحفى سورى من تلاميذ الافغانى أنشأ مجموعة من الصحف بالاشتراك مع سليم النقاش منها مصر والتجارة .

الفصل الرابع
فى قنال السويس

فى ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد لنا تلغراف من المسيو دلسبس مدير شركة القنال المذكور يستعلم عن رأينا فى القنال المذكورة بالنسبة للحركات الحربية فأجبته فى التاريخ المذكور بالتلغراف أيضًا أننا نعتبر القنال حر للمنافع العمومية الدولية ولذلك فأنا لا نتعرض له بضرر إذا أمكنه منع المراكب الحربية الإنكليزية من خرق حرمة الحياد[1] واحترامها لقانون الشركة وإلا فنكون أحرارا فى مقابلتهم بالمثل .

فورد تلغراف فى اليوم المذكور يفيد أنه ضامن ومتكفل بمنع الإنجليز من اقتحام القنال المذكور ما دام فيه عرق ينبض ـ فظننا أن فرنسا تدافع عن حقوقها وتحافظ على حرية القنال ولا تلدغ من جحر مرتين .

ولما كان قد استمر توارد الإنجليز ونزلوهم فى السويس احتج المسيو دلسيبس على ذلك[2] فاصدر الخديو أمرا مفاده أن أمير البحر وقائد القوة الإنجليزية العامة بما أنهما أتيا مصر مأمورين بإعادة الراحة والنظام إليها فهما لذلك مفوضان بالحلول فى جميع النقط التى يرون لزوما للحلول فيها على قصد قمع العصاة وقد توعد فى هذا الأمر من يخالف أحكامه بالقصاص الصارم (مصر للمصريين ص ١٥١ جزء ٥)

وهنا سبيل لأن نكتب تقرير المسيو فيكتور دلسيبس الذى قدمه لأبيه الموسيو فرديناند دى لسبس بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٨٨٢ على أثر تلك الأحوال وهذا معربة .

(تقرير الموسيو فيكتور دلسبس)

فى تقاريرى السابقة أنبأتكم يا حضرة الرئيس بإصرار الحكومة الإنكليزية علي عدم الاكتراث بنظاماتنا وقوانيننا وبحلول الإنكليز في مياه ترعة السويس بناء على أمر الإميرال هيويت .

وفي ١٣ أغسطس أرسلت إليكم تلغرافا مشتملا على بيان مسألة الإنكليز فى الترعة

---

(١) استمع عرابى إلى نصائح دلسبس بضمان حياد المرور بالقناة ولم يستمع إلى وجهة النظر الخاصة بإغلاقها .

(٢) الواقع أن دلسبس كان من أشد الداعين لفكرة حياد القناة ولم يكن يرغب فى استيلاء الإنجليز عليها ، وفى نفس الوقت كان يخشى ردم العرابيين لها . .

ثم توجهت إلى السويس . ففى صباح ١٤ منه حصلت مقابلة بينى وبين الأميرال هيويت فبسطت له فيها أن رئيس ومدير إدارة الترعة لم يجب على رسالته لأسباب أجلها أن اعتبر الجواب عليها من موجبات وقوع سوء التفاهم أو الوحشة بينهما ولذلك كلفنى أن اجتمع به واشرح له مشافهة مالا يشك بعده أن الإنجليز يخرجون من الترعة مراعاة للعهود والمواثيق .

ولقد شافهته بهذا الكلام ولم ألق عناءً فى اقناعه بأنه تجاوز الحدود المقررة للدول المحاربة فإن الأعمال التى قاموا بها لم تكن إلا لتحمل المصريين على العبث بحقوق الدول التى بالترعة بعد أن رأيناهم إلى الآن يحترمونها(١) بالرغم عن تظاهرات الإنكليز وقد قلت له أنه إذا علم المصريون أن الإنجليز حلوا على ضفاف الترعة بغية ادخار المؤن فيها ترتب على ذلك خوفنا من سدها وقطع الماء عنها .

ثم سألنى الأميرال أن ألقى إليه شروحا وتفاصيل كافية عن حيادة الترعة وحقوق كل من الشركة والحكومة المصرية وواجباتها فقلت له بل أخطرت على ذهنه كيف أن الصفة التى لزمها الموسيو فردينان دى لسبس فى انكلترا فيما يتعلق بشأن الترعة كانت تلقى من مصاعب المقاومة ما تحمل لأجله أمور كثيرة حبا فى جعل الترعة على الحيادة وكيف أنه بمحاماته عن مبدأ هذه الحيادة كانت الشركة تظهر نفسها حريصة على منافع انكلترا ومصالحها . وذلك يمنعها من الاتيان بأعمال تضر بالتجارة العمومية وتجارتها خصوصا قد اعلنت له أن الاحتجاج على الأعمال العديدة التى خرقت بها انكلترا حرمة النظامات الموضوعة للترعة والمرعية الإجراء لا يجب أن يؤخذ منه أن الشركة تقصد الأمة الإنجليزية بعدوان ولكنها تقصد به المعارضة والممانعة فيما يوجب إقامة الحجة عليه سواء كانت الدولة الجانحة إليه انكلترا أو غيرها . وقد أفهمته أن الخديو ليس فى رغبته أن يخل بنظام الترعة وإن شأن السفن المصرية فى الترعة شأن السفن الأخرى الغربية وفى الجملة أن البحرية الإنكليزية لا تستطيع أن تأتى عملا مخلا بالحقوق المحترمة باسم الخديو وحكومته .

---

(١) أعد محمود فهمى رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى تصميما لنسف جوانب القناة بالديناميت كما وضع تحت تصرف الجيش خمسة آلاف من البدو لردم القناة ، ولكن عرابى ظل مترددا فى اتخاذ القرار على الرغم من أن المجلس العسكرى الذى شكل للنظر فى هذه المسألة قد أيد فكرة إغلاق القناة . زين العابدين شمس الدين : بورسعيد تاريخها وتطورها . رسالة ماجستير غير منشورة ص ٤١٣ .

فشكر لى الأميرال ما أبديته له وقال لى أنه سيكتب إلى حكومته بما القيته على مسمعه مما يختص بحيادة الترعة وشأن الشركة فيها .

وبعد زيارتى له بنحو ساعة من الزمان لم يبق فى مياه الترعة جندى واحد قط من الجنود الإنكليزية .

ثم عدت إلى الإسماعيلية خامس عشر الشهر ، ففى ١٦ منه ورد للموسيو دى روفيل رسالة من القبودان فيتس روى مآلها أن الأميرال هوسكنس ليس على علم صحيح بشأن الحكومة المصرية والشركة فى ترعة السويس فدعانى المدير على أثر ذلك إلى بورسعيد وكلفنى أن اجتمع بالأميرال وأجعله على ما يروم من العلم اليقين بحقوق الحكومة المصرية والشركة فى خليج السويس .

وفى ١٨ اجتمعت بالأميرال هوسكنس فلقيت منه غير ما لقيت من الأميرال هيويت فإنه جعل فى أذنيه صمما وإمالهما عنما كان فى كلامى من الصواب وقد صرفت بجانبه أكثر من ساعة على هذه الحال محاولا إقناعه بأن مياه بحيرة التمساح وبورسعيد خاضعة كالترعة لحقوق الشركة وأن جميع السفن الأجنبية بلا استثناء تعامل فى بورسعيد والبحيرة المذكورة بمقتضى نظام الشركة المقرر .

فلم يصغ الأميرال إلى هذا المقال وفوق ذلك إنه كان يقطع علىَّ الحديث بين الدقيقة والأخرى ويقتصر على القول أن الموسيو دى لسبس عدو انكلترا وأن فى بورسعيد راية مصرية .

ولقد بذلت الجهد فى إقناعه بأننا لسنا أعداء انكلترا وأن وجود الراية المصرية فى مياه بورسعيد ليس من شأنه أن يجعل للبحرية الإنكليزية أو بحرية أى دولة كانت حق خرق النظام وتجاوز الحدود فكانت مساعىَّ واجتهاداتى تذهب سدى .

فمن ذلك يتضح أن الأميرال كان قد تقرر فى ذهنه أننا أعداء الإنكليز وأن مياه بورسعيد وبحيرة التمساح أن هى إلا مياه مصرية يفعل فيها ما يشاء من غير معارض .

وبعد أن انتهت هذه المخابرة بيننا رجعت إلى الإسماعيلية وفى ليل ١٨ الشهر انقطع تلغرافنا بالقرب من السويس فاستدللنا من الآلات التى وجدناها فى الصباح أن الأيدى التي اشتغلت بقطع تلك الأسلاك إنما هى أيد أوربية فعمد الموسيو دى روفيل فى الحال إلى إصلاحها وإعادة المخابرات بواسطتها .

وبعد عود الصلات التلغرافية إلى مجراها السابق ورد إلينا تلغراف من الموسيو شار ترى مشتمل على نص رسالة بعث بها اليه الأميرال هيويت ومفادها أنه وفقا لتعليمات الحكومة الإنكليزية أصبح مأمورا بمنع جميع السفن من الدخول إلى الترعة وفى جملتها زوارق الشركة وباستخدام القوة عند الاقتضاء فى إنفاذ هذه التعليمات .

فلما وقف المدير على نص هذه الرسالة بعث الموسيو شارترى بلائحة يقيم بها الحجة على رسالة الأميرال .

وفى نحو الساعة التاسعة من صباح ١٠ الشهر دخل الترعة زورق مسلح من زوارق السفن الحربية الإنكليزية وتصدى لما فيها من الزوارق البخارية تصديا مبنيا على ما جاء فى نص رسالة الأميرال أما عن جهة بورسعيد فلم يبد شىء من مثل ذلك .

وكانت التعليمات التى اعتمد عليها الأميرال منذرة بوقوع حوادث هائلة ففى ليلة ١٩ طرأت على الإسماعيلية تلك الحوادث وجعلتها مشهدا للمخاوف .

وذلك أنه بينما كان قوم الأوربيين مجتمعين فى منزل الموسيو بواليرى على أثر دعوة إلى ليلة رقص فيه وكان الوقت إذ ذاك بالغا حد الساعة الثانية بعد منتصف الليل إذا بحركة فى طرق المدينة تصم الآذان فمن إطلاق بنادق وسوق عساكر وجر مدافع إلي غير ذلك مما كان حدوثه غير منتظر وكان أصحاب تلك الحركة قوم الإنكليز الذين أخذوا يخرجون إلى المدينة غير مستدركين أمرا شأنه أن يلقى الرعب فى قلوب السكان ويطرح المارة منهم قتلى فى الطرق بنار البنادق .

وقد حرنا فيما بعثهم على تلك الحركة الحربية إذ لم يكن أمامهم من عدو يطلقون عليه تلك النار ، فإن معسكر المصريين كان فى النفيشة التى تبعد عن الإسماعيلية مسافة ثلاثة كيلومترات أما المدينة فلم يكن فيها إلا نفر قليلون من البوليس وهم قوم من أشد الناس ميلا إلى السكينة فإنهم قضوا إلى الآن فى الإسماعيلية سنين كثيرة لم يكن همهم فيها إلا تأييد الراحة والمحافظة على النظام .

وبعد خروج الإنكليز بقليل دوت أصوات المدافع وذلك بأن أخذت السفينة أوريون ، والسفينة كاليفور . فى إطلاق مدافعهما على النفيشة ثم استمر إطلاق البنادق متتاليا متتابعا فى شوارع المدينة وعند بزوغ الفجر انقطع اندفاع رصاص البنادق فى حارة

الاوربيين وقد أصيب به رجل من الأوروبيين وهو هولندى الأصل يدعى الموسيو برونيس .

وبعد شروق الشمس انطلق الملاحون الإنكليز إلى قرية العرب التى يقطنها فعلتنا الوطنيون وأخذوا يطلقون النار على النساء والأطفال فكانوا يفرون من وجوههم إلى الصحراء ويملأون بصراخهم الفضاء .

وقد اسروا بعضا من رجال البوليس من غير أن يبدى أحد منهم مقاومة ما ولكن أحدهم قتل اثناء محاولته الفرار مع عائلته .

وعندما نزل الإنكليز إلى البر قطعوا أسلاكنا التلغرافية المتصلة بالسويس وبور سعيد وحل القبودان فيتس روى فى مكتب المينا وحجر على زوارقنا وقد أصبحت الإسماعيلية الآن من ضمن حصار مخيف وأمسينا لا ندرى ما هو جار فى بقية الخط وقد أخذنا أن نهيئ مكانا لعائلات مستخدمى الشركة حيث تكون آمنة شر الخوف والرعب فإن فى المدينة ثلثمائة جندى فقط من ملاحى الإنكليز وفى الظن أن عساكر النفيشة يستطيعون فى الليل أن يهجموا على المدينة ويطردوهم منها ونرى من الحزم أن نرسل النساء والأطفال إلى بحيرة التمساح ليقضوا فيها الليل ، أما نحن فقد عزمنا على البقاء فى المدينة .

وقد منع القبودان فيتس النساء من السفر فكتبت اليه مستفهما فبعث إلى يقول أنه يبيح للنساء السفر ولكن رجال المسيو دى لسبس يجب أن يقيموا فى المدينة فإنه يتوقع أن يحمل عليه فى الليل وأن يحدث قتال فى الإسماعيلية فلذلك يروم أن تبقى فى المدينة .

فلما ورد هذا الجواب آثر قسم عظيم من العائلات البقاء فى المدينة على الجلاء عنها أما القسم الآخر فالتجأ إلى السفينتين الأسبانيتين (كارمين والباتروس) وكان قائداهما الدون كارلوس رويز والمسيو بونفيلد قد أرسلا الينا زوارق مخصوصة فتوجه عليهما إلى السفن من رام الالتجاء إليها .

وانقضى الليل من غير أن يحدث شيء مزعج فيه وفى الصباح نهضنا من الرقاد وقصدنا الخروج إلى شوارع المدينة فإذا هى غاصة بالعساكر الإنكليزية البرية والبحيرة

ملأى بسفن النقل الحربية وفى ٢١ الشهر نصب الإنكليز أنفسهم سلكنا البرقى الكائن على خط بورسعيد . وبلغنا أن كثيرين من الجنود الإنكليز نزلوا إلى بورسعيد وأن الأميرال هوسكنس استولى على مكاتب الشركة فيها وطرد منها الموسيو ديزفارى وأن سفنا كثيرة من السفن الحربية دخلت الترعة بدون أن تؤدى الرسوم اللازمة وأن الإنكليز حلوا فى القنطرة بالقوة .

وفى صباح ٢١ أتى الإسماعلية الأميرال بوشان سيمور والجنرال ولسلى والأميرال هوسكنس وفيه حصلت بينى وبين الأميرال سميور مقابلة أظهر لى فيها رغبته فى عود الشركة إلى شأنها المسلوب فى الترعة فقلت له أننا لا نقدر أن نستلم زمام عملنا السابق فى الخليج إلا إذا كنا قادرين على إدارته بمقتضى حق الخدمة المقرر لنا فى نظام الترعة وبعبارة أخرى إذا رفع الحظر على زوارقنا فى الإسماعيلية وأعيدت المخابرات التلغرافية بيننا وبين السويس وفى الجملة إذا أعيد للشركة حق إدارة أعمالها كما فى السابق من غير أن يكون للغير دخل فيها وإلا فالتبعة عائدة على الأميرال واتباعه فقبل الأميرال والجنرال ولسلى أن يتحملا هذه التبعة .

وفى ٢١ ، ٢٢ ، الشهر رفعت الأسلاك التلغرافية بين الإسماعيلية والسويس ثم بلغنا أن المصريين اشتبكوا فى ٢٠ الشهر بقتال عنيف مع الإنجليز فقتل من المصريين مائتان .

أما عدد الإنكليز الذين خرجوا إلى الإسماعيلية فقد بلغ من ٢١ إلى ٢٥ الشهر عشرين ألف مقاتل ، وفى ٢٢ انخفضت مياه الإسماعيلية ٢٥ سنتيمترا واستمر هذا الانخفاض فى الأيام التالية بمعدل ٤ سنتيمترات فى اليوم وهو ما دعى إلى الظن بأن العرابيين قطعوا مياه الترعة وفى ٢٣ سلك الإنكليز طريق القاهرة سائرين على خط الترعة الحلوة وخط الطريق الحديدية وبعد أن حدث بينهم وبين المصريين بعض مناوشات بلغوا المحمسة وهناك تحققوا أن مياه الترعة لم تصب بأذى وعلي فرض أنها قطعت من فوق المحمسة فإن فى محنقنات القصاصين والإسماعيلية ما يكفى الترعة شهرين .

وفى ٢٤ عاد سير الأحوال المتجرية فى الترعة إلى عهده السابق .

ومن اللازم أن اذكر أن الانكليز كثيرا ما احتاجوا إلى ديا دبتنا أدلاء السفن فطلبوا منهم بعض الخدمة فأبوا ما لم تسمح لهم الشركة بإجابة الطلب .

وحاصل القول فى الختام أنه لم يلحق بأحد من رجال الشركة سوء وأذى فى مدة هذه الأزمة[١] .

التوقيع (فكتور دى لسبس)

(ملحوظة)

كل عاقل منزه عن الغرض يطلع على ما سبق توضيحه من أن الخديو أصدر أمره بأن أمير البحر وقائد القوة الإنكليزية العامة بما أنهما أتيا مصر لإعادة الراحة والنظام اليهما فهما لذلك مفوضان بالحلول فى جميع النقط التى يرون لزوما للحلول فيها على قصد قمع العصاة[٢] وتوعده فى هذا الأمر من يخالف أحكامه بالقصاص الصارم . ومن يطلع على تقرير الموسيو فيكتور دى لسبس واعتراف الشيخ حمزة فتح الله فى مقالته الأولى بأن الخديو ليس أول من استنصر بغير ذوى دينه بل أن لذلك سوابق كثيرة .

يعلم علم اليقين أن الإنكليز ما أتوا لقتال المصريين إلا بطلب الخديو بإتفاق سابق وأن تقريره للحرب فى المجلس الاعلا[٣] الذى كان تحت رياسته ما كان إلا خدعه وإن تحيزه للعدو كان باتفاق لأجل أن يصير قتال الإنكليز مع المصريين باسمه وأن النظار وغيرهم الذين اتبعوه كانوا قد خدعوا كما خدع الشيخ حمزة فتح الله وغيره من البسطاء على أن كل من كان معه من رجال الاستبداد الذين لا ترضيهم الحرية والمساواة إلا اثنان منهم هم حسن باشا الشريعى وعبدالله باشا فكرى ولذلك سجنهما وأهانهما حال إبلاغه هزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير انتقاما منهما لعدم استحسانهما انحيازه للإنكليز ومعاملته لنا بالعزل وإعلانه عصياننا بعد الإنحياز إلى الأعداء المحاربين لبلاده .

نص منشور النظار وهم فى قبضة العدو مع الخديوى

أنه بناء على مخالفات أحمد عرابى باشا استصوب بمجلس النظار تبين بعض وقوعاته وما يتأتى من الاستمرار على ما هو عليه مع إعطاء النصائح اللازمة لجميع أخواننا

---

(١) انظر سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٥٣ - ١٥٧ .

(٢) على الرغم من استناد الإنجليز إلى هذا الأمر فى جعل احتلالهم للقناة يأخذ صفة الشرعية فإننا نرى أن هذا التصريح ليس له سند قانونى نظرا لأن سلطة الخديوى كانت مقيدة بحق السيادة الذى يملكه السلطان العثمانى وبالامتيازات التي تحددت للشركة من قبل لذلك فهو لا يملك أن يوكل مهمة إقرار الأمور فى القناة لأى دولة أجنبية .

(٣) صحتها الأعلى .

بالإعلانات المقتضية فنقول أنه غير خاف على علم العموم جميع مخالفات أحمد عرابى باشا وما حصل من تلطيفه تارة وتوبيخه أخرى من طرف الجناب الخديو الأفخم لاجتنابه ذلك حتى لإزالة خوفه قد استحصل عطوفتلو راغب باشا على العفو العمومى من لدن الجناب العالى عن كل من عليه مسئوليه أوله اشتراك فى الحوادث الصادرة لغاية تاريخ التقرير المتقدم منه للحضرة الخديوية ولم يثمر كل ذلك ولكون حصل منه بعد هذا التاريخ حوادث كمثل ذهابه إلى كفر الدوار مستصحبا العساكر وإخلاء ثغر اسكندرية وطوابيها من غير أمر يصدر إليه وتوقيف حركة السكة الحديدية وقطع جميع المخابرات التلغرافية ومنع ورود البوستة وحجز مياه المحمودية عن اسكندرية بقصد حصول الضرر لجناب الخديو الأعظم وهيئة النظار وسائر سكانها وكذلك منع جميع المهاجرين وغيرهم من الحضور إلى اسكندرية وعدم إجابته إلى الأمر العالى الصادر بطلبه إلى اسكندرية وتشبثه بالإعلان افتراء على الجناب الخديو بأنه سلم اسكندرية للإنكليز وحبس هيئة النظار فضلا عن تجاسره على عزل ونصب المديرين وغيرهم ، وجميع ذلك يعد عصيانا للخديو الأعظم النائب عن أمير المؤمنين ولذلك صدر أمر عال بعزله . وحيث أن دولتلو درويش باشا أخبر بحضور الجناب الخديو وهيئة النظار أن الأميرال سيمور قد أخبره بأن ليس للدولة الإنكليزية عداوة لامع الدولة العلية ولامع الحكومة المصرية بل إن ما حصل من ضرب المدافع والتخريب إنما هو مقابلة التهديد والتحقير الذى حصل بإجراء عمليات الطوابى لأمر أحمد عرابى باشا بعد صدور الأمر السلطانى بمنع ذلك وقد اكتفى بما وقع . وأنه إذا كان للحكومة الخديوية عساكر مطيعون ومؤتمنون فهومستعد لتسليم الاسكندرية وطوابيها وبالفعل سلم بعض جهات منها لمن حضروا طائعين من العساكر كما وأنه عن قريب ستحضر عساكر من جهات السلطنة السنية وتجرى استلام اسكندرية موقتا (أى باشبذق) وعلى الخصوص فإنه بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٨٨٢ عرض الأميرال المومى إليه للجناب الخديو الأفخم بمضمون أن الحكومة الإنكليزية لم يكن من مقصدها التغلب على القطر المصرى لنفسها ولا المداخلة فى حرية المصريين ولا فى ديانتهم . وفقط مقصدها حماية الجناب الخديو مع أهالى القطر المصرى من العصاة وإزالة العصيان ورجوع النظام فى القطر المصرى . فيعلم للعموم من هذا التوضيح إن جناب الخديو الأعظم ما سلم الاسكندرية للإنكليز ولم يخطر ببال سموه أصالة ولا فى نياته الجليلة أبدا ولا من غرض الدولة المشار إليها الاستيلاء عليها ولا على قطعة منها .

وكذلك لم يصدر أمر الخديو الجليل بحبسنا معاذ الله ولا نوى ذلك بل أن نياته الجليلة مصروفة أبدا إلى راحة ورفاهية العباد مع عمارية البلاد وإن تشتيتات أحمد عرابى باشا فى تجهيز اللوازم الحربية فى النقط التى صمم على إتخاذها مركزا للحرب تعتبر تهديدا لجميع الدول وهذا التهديد ينتج منه مضرات جسيمة .

ومثلها واقعة اسكندرية لأنه بناء على ما علم من الحوادث أنه استقر الرأى بالمؤتمر ابقاء حقوق الدولة العلية مع سائر الامتيازات المصرية على أصلها ولزوم إزالة العصيان الواقع بالقطر المصرى قد قبلت الدولة العلية إرسال عساكر لذلك علاوة على عساكر إنكلترا وفرنسا وإيتالية كما قبل فتشبث أحمد عرابى باشا مع المساعدين له على تدارك تجهيزات حربية لمقاومة جميع دول عظام هو لأغراضه الشخصية وغاياته النفسانية الموجبة لخراب البلاد وسفك دماء العباد وحيث أن كل من عصى الله ورسوله وأولى الأمر وسعى فى الأرض فسادا أعنى كل من أراد أو يريد الفساد أو يساعد لذلك مالا وبدنًا سيدخل تحت حكم الآيات الشريفة والحديث المبين .

فننصح أن كل من يكون فى قلبه ذرة من الإيمان من إخواننا فليتق الله فى الوطن وفى نفسه والله المستعان[١] أ . هـ .

من المعلوم أن الإنجليز لم يأتوا إلى هذه الديار حبا فى سواد عيون الخديو ولا بقصد التعرض للأديان ولا لأخذ قطعة من الاسكندرية بل لابتلاع مصر وملحقاتها باسم الخديو ولاكن[٢] الخديو المحبوب لهم قد مات وباد جيش العصاة على زعمهم فلم لا يتركون مصر لأهلها ويوفون بوعدهم فليتدبر أولوا الألباب . وليندم من انخدع وقصر فى خدمة وطنه ، فالأمر لله من قبل ومن بعد .

(كتاب راغب باشا إلى الأميرال سيمور[٣])

حضرة الأميرال :

لى الشرف أن أعلن لحضرتكم أن عرابى باشا يشتغل الآن بإعداد وسائل للدفاع وذلك مخالفة لأوامر الجناب الخديو وقد صدر له الأمر بالكف عن هذه التجهيزات

---

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) صحتها لكن .

(٣) من المعلوم ان عرابى كان يحاول ابعاد خبر هذه المنشورات عن ضباط جيشه حتى لا تتأثر روحهم المعنوية .

فكونوا إذا على علم بأن الجناب الخديوى عزم على عزله من وظيفته فهو لذلك وحده المسئول عنما يحدث[١] فأرجو أن تعلنوا مآل هذه الرسالة إلى حكومة جلالة الملكة[٢] .

الإمضاء

راغب

صدر بسراى رأس التين فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ حررنا إلى كاتب المابين بما يأتى :

كنت قد بسطت لعطوفتكم فى ٢ أغسطس وما بعده أمر اعتداء الإنكليز وتسلطهم فى جهتى السويس والإسماعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود بما جاء مخلا بنظام الترعة وبسطت أيضًا ما كان من الهمة التى بذلناها فى جعل الترعة على الحيادة لأنها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الأمم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه المحمل الشريف والحجاج المسلمين إلى جهة الحجاز كتب إلى الموسيو دى لسبس الموجود الآن فى الإسماعيلية بالاستفهام عما إذا كانت انكترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أم لا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف أنه بالنظر إلى الأحوال الحاضرة لايمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال المحمل الشريف وبعد مرور هذا الجواب منع الإنكليز سفن الدول من المرور بالقنال وقطعوا الأسلاك البرقية الكائنة بين السويس والاسماعيلية كما عرضنا ذلك بالتلغراف .

ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أبنا الاحتياطات التى اتخذت لمقاومة العدو إذا تقدم إلى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ووكيل محافظة الإسماعيلية ويوزباشى العساكر المستحفظة هناك قد أفادوا أن من عزم الإنكليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى ما داخل[٣] البلاد ففى هذا الصباح علم من الأخبار الواردة أن الانكليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليل أمس فى إطلاق القنابل من جهة الإسماعيلية على نفيشة .

---

(١) على الرغم من أن البلاد كانت فى حالة حرب مع الإنجليز ، ومع أن الإنجليز قد احتلوا الاسكندرية استعدادا للزحف منها إلى داخل البلاد ، فمن الغريب انقلاب راغب باشا على العرابيين بهذه الطريقة .

(٢) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٢٧ .

(٣) يقصد مداخل البلاد .

أما نحن فبالنظر إلى احترامنا لعهود القنال بأن يكون على الحيادة وإلى عدم تقويتنا لتلك النقط وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا (العساكر المستحفظة) وموالاة التحريض الشديد على عدم مس حقوق القنال كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعة كانت .

ولما بدا من الانكليز هذا الاعتداء على ضفاف القنال أقام الموسيو دى لسبس الحجة على الأميرال الإنكليزى وأرسل صورة الحجة بالتلغراف إلى الحكومة الفرنسية .

فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار إليها فاعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الإنكليز لم يلتفتوا إلي إقامة هذه الحجة بل أصروا على الإخلال بنظام القنال وفى هذا الشأن أرسل تلغراف إلى الموسيو دى لسبس بما يأتى .

بما أن الإنكليز خرقوا حرمة نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة إلى سدها وتعطيلها منعا لاعتداءاتهم فإذا لم يرد إلينا جواب شاف فى مدى ٢٤ ساعة اضطررنا إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة .

فمن تفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الإنكليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لاتحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم .

ومن التعدى الذي قامت به أمس ظهر فى الواقع أنها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضا أنها مقاومة لجميع المصريين الأمة الخاضعة للدولة العثمانية وأنها داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فبما أن أعمال الانجليز وصلت إلى هذه الدرجة فلم يعد فى الامكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائط المقتضاه لدفع كيدهم .

وقد بسطت فى ما[١] مضى شرح الأحوال التي كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم أمير المؤمنين بادرنا إلى كتابتها وتقديمها إلى عطوفتكم[٢] ا . هـ .

---

(١) يقصد فيما مضى .

(٢) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ .

وقائع ٥ ، ٦ ، ٧ شوال سنة ١٢٩٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ أغسطس سنة ١٨٨٢

فى يوم الأحد ٥ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٢ رؤى العدو يرتب عساكره من الساعة السادسة فرتب طلبه باشا قومندان الفرقة عساكرنا بهيئة مؤلفة من أربع أورط من الجهة الشرقية تحت حكمدارية عيد بك الميرالاى والقائمقام أحمد بك عفت وأربع أورط من الجهة الغربية تحت حكمدارية الميرالاى مصطفى بك عبدالرحيم والقائمقام سليمان بك سامى وأما السوارى والعربان تحت قومندانية أحمد بك عبدالغفار وفى الساعة التاسعة العربية ظهر العدو مرتبا قولاته من ستة قولات من الجهة الشرقية وقولين من الجهة الغربية وقطارين من قطارات السكة الحديدية .

ثم ابتدأ الضرب بمدافع الطرفين واستمر ساعتين .

وكانت عساكرنا تتقدم تحت نيران الطوبجية وعندما صار العدو تحت مقذوفات البيادة ابتدأ إطلاق النار من الطرفين واحتدمت الحرب وتوالى إطلاق النار إلى منتصف الساعة الأولى من الليل فلما رأي العدو ثباتة عساكرنا وإقدامهم بالشجاعة والحركات السريعة ولى منهزما فتبعته السوارى والعربان وأوقعت به حتى أدخلته فى نخيل الرمل ولله در طوبجيتنا فقد أظهروا من المهارة ما ترك كثيرا من رجال العدو صرعى فى ميدان القتال(١) .

وفى ٦ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٢١ أغسطس ١٨٨٢ حضر العدو بقولات من جهة الرمل وابتدأ يإطلاق المدافع من الفريقين وكان مشاتنا يسيرون تحت نيران مدافعنا وقبل أن يصلوا إلى مواقع المقذوفات تقهقر العدو واستمر إطلاق المدافع إلى الغروب وعندما رأى العدو نيران مدافعنا مؤثرة فيه تأثيرا عظيما انهزم وعادت عساكرنا ولم يصب واحد منهم بسوء وقد أصيب فى هذه الواقعة كثير من رجال العدو كما تحقق من استكشافات هذا اليوم أن العدو ترك كثيرا من القتلى فى الميدان أمس .

وفى يوم الثلاثاء الواقع فى ٧ شوال و٢٢ أغسطس ورد لنا تلغراف من طلبة باشا قومندان فرقة كفر الدوار قال فيه :

(١) حدث بين العرابيين والإنجليز فى ذلك اليوم عدة معارك استمرت حوالى الساعتين وكان ضباط أركان الحرب الإنجليزية يراقبون حركات العرابيين بالنظارات المعظمة سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢١٠ .

بعد أن ظهر العدو ورتب عساكره من خطوط «جرخجية» ثم طوابير ثم قولات تقدم حتى صار تحت نيران مقذوفاتنا فابتدأت الحرب في منتصف الساعة الحادية عشر واشتغلت طوبيجتنا بمهارة عظيمة حتى بددته وشتته تحت النخيل ثم مازالت نيراننا تقفى أمره حتى انهزم شر هزيمة وقد رأيت قنابلنا تفرقع فى وسط طوابير العدو وقولاته فتهلك الكثير من رجاله وكانت أصوات عساكرنا مرتفعة بالتكبير والتحميد ومشاتنا يتقدمون تحت نيران مدافعنا ولاكن[1] العدو لم يتمكن من الدخول فى منطقة نيران البنادق لتأثير نيران مدافعنا فيه ولقد رأيت من مهارة طوبجيتنا وإصابة مقذوفاتهم ما أبهجنى وملأنى سرورا وزدت سرورا بهم عندما رأيت (جبخانة العدو قد التهبت وأصابت كثيرا من رؤساتهم ثم شاهدت كثيرا فى طابية الرمل من الذوات وكبار الأفرنج يشاهدون القتال ومعهم النظارات وقد استنجد الإنكليز فجاءتهم نجدة على قطار مخصوص ولكنها لم تصل إلا بعد الهزيمة فرجعت كما جاءت وكان الوقت فى الساعة واحد ليلا .

فبشروا العموم بتأييد الله ونصره للعساكر المصرية وما يظهرونه من الثبات وتبديد العدو الباغى .

(١) صحتها ولكن .

الفصل الخامس

استعفاء وزارة راغب باشا

استعفت وزارة راغب باشا فى ٢٤ أغسطس تقريبا[١] واستقدم الخدو رياض باشا من أوروبا حيث كان متغيبا فيها فقدم وبعد قدومه دعا الخديو شريف باشا إلى تشكيل وزارة جديدة برئاسته فلبى الدعوى وشكل وزارة على الوجه الآتى[٢] :

شريف باشا	رئيس النظار وناظر الخارجية
رياض باشا	للداخلية
عمر باشا لطفى	للجهادية والبحرية
علي حيدر باشا	للمالية
على باشا مبارك	للنافعة (الأشغال العمومية)
أحمد خيرى باشا	للمعارف
حسين فخرى باشا	للحقانية
محمد زكى باشا	للأوقاف

وفى بعد ذلك أصدر الخديو المنشور الآتى بيانه :

«إلى جميع اهالى وسكان القطر المصرى»

ليس خافيا ما أقدم عليه أحمد عرابى وشيعته الضالة من الأفعال المغايرة والتشبثات الفوضوية التى أخلت بنظام القطر وأضعفت الثقة به بل أورثته الخسائر والأضرار الجسيمة ولاسيما بانضمام الجيش المصرى إليه واتحادهم معه فى البغى والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الأحوال وخيفت العاقبة فبادرت الممالك العظيمة إلى عقد المؤتمر الدولى بالآستانة للنظر فى المسألة وتقرير ما به حلها وبالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التي يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول أسباب المفاسد حرصا على عمارية القطر واحتراز مما عسى أن يلم به الدمار ولما كانت الدولة البريطانية

---

(١) صحتها ٢١ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) حول تشكيل هذه الوزارة انظر النظارات والوزارات جـ ١ ص ١٢٠ - ١٢٥ .

الإنجليزية لها فيه المنافع الكبرى ، ولا سيما بالنظر إلى ترعة السويس التى هى طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة فقد أخذت على عهدتها وتحت أمرتها التداخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون أن تمس حقوق السلطنة السنية ولا الامتيازات المصرية ولتحققنا أن نيتها سليمة ومساعيها فى الظاهر والباطن ليس إلا الإصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا الفتك بأهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم فى الأمة الإنكليزية على حسن مقاصدها المذكورة ولا يزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى لزيادة الخراب حتى اعتبرتهم السلطنة السنية عصاة مخالفين للأحكام الشرعية فاستدراكا للأمر ومراعاة للمصلحة العمومية قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الإنكليزى بالتجول نحو جموع العصاة واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسائهم لمقاصتهم بما يستحقون من أشد العقاب .

وبما أن العساكر الإنكليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم ليعود الأمن والراحة ويزول الشقاء عن العباد ومن كانت هذه صفتهم فإنهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من جهتهم بوجه من الوجوه فينبغى ألا يرهب منهم أحد ولا يظن فيهم سوءاً أو مكروها وأن لايعاملون بما يستوجب المنافرة بل على كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولايتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجونه من المؤونة والعلوفة باثمانها السائرة التي هم مستعدون لأدائها فورا فمن فعل ذلك فقد وفى ما يجب عليه من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله (كلا بل استوجب غضب الله وسخطه) ورضانا عنه فضلا عنما[1] يراه منهم من المكرمة . ومن أبى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لا تجديه نفعا فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها . وتحققنا أنه من العصبة الباغية فأمره كأمرهم .

هذا وأننا نحذر الناس جميعا من سكان البنادر والبلدان وبالأخص المحروسة عن المهاجرة من بلادهم وانحيازهم إلى العصاة طوعا وكرها منهم فيدهمونهم بما دهموا به أهل الاسكندرية عندما خدعوهم على إخلائها فى أقل برهة وبخروجهم تمكن الباغون

(١) صحتها عما يراه .

المنافقون من نهب المدينة وإحراق أهم جزء فيها بغتة فليعتبر العاقل بغيره . فعلى علماء وذوات وعمد ومشايخ البلاد ووجهائها وتجارها الذين نتوسم فيهم الخشية والسكينة والاخلاص الحقيقى لجانب الحكومة ويعز عليهم وطنهم ولهم الخبرة بالعواقب أن يذعنوا ويمتثلوا لأوامرنا هذه وينظروها بعين النصيحة المحضة لمصلحتهم ومصلحة القطر ويلزموا العامة باتباعها كيلا يتزعزعوا ويكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من قبل العساكر الإنكليزية فلا يمسهم ضرر ولا يلحقهم كدر ما داموا مجتنبين العصاة وهذا ما اقتضته إرادتنا[١] .

(مجلس الأمة العمومى قرر بتوقيف الخديو وعدم نفاذ أوامره)

(بسبب تحيزه للعدو المحارب للبلاد .

وفى ١٩ أغسطس سنة١٨٨٢ أصدر الجنرال ولسلى منشوراللأمة المصرية وهذا نصه .

(بأمر الحضرة الخديوية)

إعلان الى جميع المصريين

يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الإنكليزية أن الدولة البريطانية لم تقصد بإرسال التجريدة العسكرية إلى القطرالمصرى إلا تأييد سلطة الجناب الخديوى فجنودنا لذلك لاتقاتل إلا من كان شاكى السلاح مخالفا لطاعة الخديو أما سائر الأهالى الذين يكونون فى هدوء وسكينة فيعاملون بالتؤدة ومقتضى الشعائر الإنسانية فلا يمسهم أذى بل سيحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم ، وما يلزم للجيش من زاد وغيره يؤدى ثمنه ولذلك ندعو الأهالى إلى تقديم ما لديهم مما يحتاج اليه الجيش .

ثم إن الجنرال قائد الجيوش يسر كثيرا وينشرح صدرا من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ممن يود المساعدة فى قمع العصيان والقاء القبض على العصاة الذين عصوا الخديو أمير البلاد وواليها الشرعى المعين من لدن الحضرة السلطانية .

الاسكندرية ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢

الإمضاء الجنرال غارنت ولسلى

قائد الجيوش الإنكليزية فى الديار المصرية .

---

(١) سليم النقاش : المرجع السابق ج ٥ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

الفصل السادس

(فى قوة الإنجليز البرية)

أحصيت فى ٩ أغسطس قوة الإنكليز البرية التي خرجت لمحاربة المصريين كما جاء فى كتاب مصر للمصريين ١٤٤ صفحة جزء ٥ كما يأتى المشاة .

كان المشاة مؤلفين من كتيبة من الحرس مؤلفة من فوق آلاى (رويال لبجير) و«غوردون» و«كاميرون) ومن عشر فرق مأخوذة من الآلايات الآتية أسمائها

«رويال ابرش»

«يورك» و«لانكاستر»

«لوثيان»

«ليجردون دى كورنوايل»

سوسكس»

«بركشير»

«شروشيلد»

«سوشا»

«ستافورد شير»

«كنك رويال ريفل»

ومجموع رجال هذه الفرق والالايات أربعة عشر ألفا .

الخياله

وكان رجال الخيالة مؤلفين من الفرقتين الرابعة والسابعة من «دراغون غواردس» والفرقة التاسعة عشرة من الهوسار» ومن الاى مؤلف من فرق من الايات الحرس الخيالة .

رجال المدافع

أما رجال المدافع فكان عددهم ٩٤٠ يتولى قيادتهم ٣٢ ضابطا ومعهم ٣٦ مدفعا .

المهندسون

وكان لهذه القوة فرق من المهندسين مؤلفة من ٥٤٠ مهندسا وكثيرون غيرهم من رجال خدمة الجسور والتلغراف والسكك الحديدية .

وانضم بعد زمن قليل إلى هذا الجيش فرقة من الجيوش الهندية مؤلفة من ٩٠٠٠ رجل قيادة الجنرال ماكفرسون .

وفى الجملة أن غالبية هذاالجيش كانت مؤلفة من حاميات البحر المتوسط الإنكليزية فوردت من مالطة وقبرص وجبل طارق إلا خمس فرق منها وردت من أيرلندا وأربعة من أديمبرج وواحدة من الديرشوت : فكان مجموع قوة الإنكليز أربعين ألفا أو يزيدون .

الفصل السابع
فى مهاجرى الاسكندرية

خرج سكان الاسكندرية مهاجرين إلى الأرياف وفى ١١ ، ١٢ يوليو ١٨٨٢ الموافق يوم ٢٥ شعبان ١٢٩٩ وانتشروا فى البلاد[1] فمنهم من توجه إلى القاهرة بأولادهم وعيالهم ومنهم من نزل فى محطة طنطا ومنهم من توجه إلى المحلة الكبرى ومنهم من توجه إلى شبين الكوم وبعضهم إلى مديريات أخرى فمن توجه منهم إلى القاهرة فالحكومة مع ما هى فيه من الاشتغال الزائد فى مدافعة العدو قد بذلت ما في وسعها من استقبالهم وإعداد عدة محلات وسرايات رحبة لإنزالهم فيها وإقامتهم بها من ضمنها سراى سلطان باشا وعلى باشا مبارك وغيرهما من بيوت الذوات والأعيان وقد نزل فى بيتنا ضمن ٥٠ نفسا . وأجرت على كثير منهم الأرزاق والرواتب اليومية لتعيشهم وصرفت الجرايات اللازمة لمن أقاموا بالمراكز العدة لإقامتهم والمحتاجون الذين أقاموا بالشوارع منه صرفت لهم مقادير من الحنطة ومايلزم للاستصباح والنظام وكثيرا من النقود لمأكولهم وتجهيز موتاهم ونحو ذلك .

ولقد ارتاح كثير من الوطنيين الذين جبلوا على حب المكارم إلى التقدم لمساعدة أخوانهم المهاجرين ببذل الإعانات فكان لهم السبق فى ميادين الفضل والكرم وترطيب الألسن بالثناء على ما أظهروه من الغيرة وعلو الهمم ، وكان المحافظ إبراهيم بك فوزى وعلى باشا فهمى ويعقوب باشا سامى وكيل الجهادية سهرانين آناء الليل وأطراف النهار على راحة المهاجرين وحفظ الأمن فى المدينة .

وأما الذين نزلوا فى طنطا فقد أوقع الرعاع منهم بمن وجدوه من الأروام الذين لم يهاجروا وساعدهم على ذلك رعاع مدينة طنطا ولم يحصل من المدير ولا المديرية أو فى اهتمام بحفظ الأمن ووقاية الأجانب المستأمنين فى طنطا وغيرها ولما بلغنا ذاك أرسلنا فرقة من العساكر إلى طنطا والمحلة وغيرها فى مديرية الغربية تحت رياسة الفريق راشد باشا حسنى وفرقة أخرى تحت رياسة على باشا فهمى إلى شبين الكوم وجهة المنوفية

---

(١) طلب رغب باشا فى ١٥ يوليو من وكيل نظارة الجادية إعادة المهاجرين إلى الاسكندرية بأى طريق فإن أبوا العودة يرسلون جبرا . الوقائع المصرية فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

وأرسلت اليهم القطارات من السكة الحديدية لحمل الأجانب بعيالهم مع المحافظة عليهم إلى الإسماعيلية ثم إلى بورسعيد مجانا .

وقبضوا علي مدير الغربية إبراهيم باشا أدهم ومدير المنوفية حسن بك فهمى وأرسلوهما إلى القاهرة لمحاكمتهما بالمجلس الحربى .

وهاك ما ذكر فى كتاب مصر للمصريين(١) بهذا الخصوص عن لسان أحد الرواة قال :

لما ابتدأت السفن بإطلاق مدافعها على الاسكندرية فى صبيحة ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ خرجت من بيتى فرارا من الموت مستصحبا عائلتى قصد الالتجاء إلى بعض الانحاء الريفية حيث نكون آمنين على أرواحنا فركبنا عربة من عربات الفحم فى أحد قطارات السكة الحديدية بعد شق الأنفس وبلوغ الأرواح التراقى واندفع بنا القطار يطوى الأرض ويسابق الظل والشمس فى خلال ذلك ترسل علينا سهامها وتصب على رؤوسنا من حر سمومها ما يذهل البصائر ويبهر الابصار .

ولم يهدأ روعنا ويسكن جأشنا إلا حينما انقطعت أصوات المدافع بعد خروجنا من محطة دمنهور فعند ذلك استشرنا بعضنا إلى أية جهة نذهب وفى أى مكان نقيم فاستقر الرأى على نزولنا فى محطة طنطا لأخذ الراحة مدة يوم أو يومين ثم نذهب منها إلى بعض البرارى حيث نقيم إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقد كان وصولنا إلى طنطا بعد ظهر ذلك اليوم (الثلاثاء) فاسكنا النساء والأطفال فى بيت أحد معارفنا وأقمنا الليل ويوم الأربعاء وليله وفى يوم الخميس ١٣ يوليو) عزمنا على السفر فخرجت صباحا لاستعلم عن ميعاد قيام القطار ولم أتجاوز البيت حتى رأيت البلدة تضج بالغوغاء وصراخ النساء وتجمع الناس فى الأزقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا ولما سألت عن السبب أخبرنى بعضهم أن الحرب صارت قريبة من طنطا فلذلك ثار المسلمون على النصارى(٢) (الأروام) يذبحونهم أينما وجدوهم وينهبون محلاتهم فعلمت

(١) انظر الجزء الخامس ص ١٤٠ .

(٢) بعد انسحاب العرابيين من الاسكندرية وقعت مذابح فى طنطا والمحلة الكبرى وغيرها من جراء شائعة ترددت مؤداها أن الإنجليز يزحفون على البلاد ، فثار الأهالى على الأجانب وفتكوا بفريق منهم . أحمد شفيق : مذكراتى ص ١٨٠ - ١٨١ .

أنها فتنة تماثل فتنة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، ولم أكتف بهذا الفكر دون الوقوف على الحقيقة فتوجهت إلى ديوان المديرية وقد أخذ منى الانذهال كل مأخذ وشملت الرعدة جميع أعضائى بعد وقوع نظرى على المناظر الدموية ومشاهدة بنى الإنسان يقتلون ويجرون على الحضيض من أرجلهم كالبهائم المأخوذة للسلخ بعد الذبح .

قال : وكان المتجرئون على هذه الفظائع وارتكاب هذه القبائح خفراء المديرية وبعض رعاع أهل طنطا[١] فقد رأيتهم رأى العين رافعين الهراوى على أكتافهم وواقفين للفارين بالمرصاد ولا ينجو منهم هارب ولا يرحمون ملتجئا فسألت عن المدير (إبراهيم باشا أدهم ، أين هو وماذا يفعل فى مثل هذه الحالة : فقيل لى : أنه مريض أو متمارض وقد لزم الفراش فسألت عن وكيله ومحرز بك فقيل لى أنه موجود فى المحطة فانطلقت إليها مسرعا لأقف على الاحتياطات التي اتخذها لمنع هذه الثورة فوجدته جالسًا على كرسى ومن حوله جم غفير من غفراء المديرية (الطوافة) ذوى النبابيت وكان من يأتيه من الأروام وغيرهم من المسيحين مستجيرا يدفعه إلى بعض من هؤلاء الخفراء ليوصلوه إلى حيث يأمن السوء فيأخذونه ويسيرون به أصفر اللون خافق القلب وبعد أن يبتعدوا به خطوات يقفون ويوقعون به ضرب الهراوى ولكم الأيدى ولا راحم له ولا مجير ثم انهم لايرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه وبعد موته تستلمه طائفة أخرى فمنهم من يجره من رجليه ومنهم من يعمد إلى رأسه فيضربه يالهراوات حتى تتناثر أجزاؤه ويصير القتيل جسما بلا رأس[٢] . وكل ذلك شاهدته عيانا وما راء كمن سمع إلى أن قال .

فلما وصلت أخبار تلك المذابح إلى عرابى باشا أرسل فرقة عسكرية بقيادة محمد بك عبيد القائمقام لإعادة الأمن والراحة ولكن بعد وقوع المكروه ثم أصدر أوامره بإلقاء القبض على إبراهيم باشا أدهم مدير الغربية وإرساله إلي القاهرة وبإعداد قطارات مخصوصة لكل من يروم المهاجرة من المسيحين إلى الإسماعيلية ثم أوعز إلى المديرية بالتيقظ والانتباه .

ولما استقرت الحال وزال الخوف ركبنا القطار وسرنا فأقمنا فى الأرياف إلى أن خمدت نار الحرب فعدنا إلى بلدنا آمنين .

هذا ما رواه الناقل قال صاحب مصر للمصريين فى صحيفة ١٤١ من الجزء الخامس .

---

(١) حصلت مثل هذه المذابح بالمحلة الكبرى وسمنود ودمنهور . النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٤١ .
(٢) كان عثمان الهرميل من المشتركين فى هذه الحوادث والباعثين عليها . انظر : النقاش المرجع السابق جـ ٥ ص١٤١ .

ومما يذكر فى هذه الحادثة أن يوسف أفندى أبو دية اليوزباشى المعروف من ياوران عبدالعال حلمى باشا بدمياط كان قد أرسله عبدالعال باشا بعد انتشاب الحرب بين عرابى والإنجليز ، إلى كفر الدوار[١] بمهمة مخصوصة ولما كان فرع دمياط الحديدى ينتهى إلى طنطا اضطر أن ينزل إلى محطة هذه المدينة منتظرا قطار مصر المتوجه إلي كفر الدوار فاتفق وقت نزوله أن المذبحة كانت فى أبان اشتدادها فسار إلى المدير فوجده فى البيت مريضًا فلامه على إهماله لحفظ الراحة ولما وصل إلى كفر الدوار حمل عرابى على الاعتقاد بأن إهمال المدير هو السبب فى وقوع ذلك الحادث المريع فكان من عرابى أن أمر بإلقاء القبض عليه كما مر فى السطور السابقة .

ولما انتهت الحرب وسلم عبدالعال حلمى سيفه قبض على يوسف أبو دية بتهمة كونه مشتركا فى حادثة طنطا وأنه كان يحرض المسلمين الذين كانوا موجودين فى المحطة يوم نزلوه إليها على قتل النصارى فجرت محاكمته وصدر حكم المجلس العسكرى فى الإسكندرية بإعدامه شنقا فأعدم[٢] .

هذا ما رواه صاحب مصر للمصريين صحيفة ١٤١ ونحن نزيد عليه أن دمه وقع على المتسبب فى قتله ظلما وانتقاما منه وهو إبراهيم باشا أدهم المدير فإنه لما انتهت الحرب ورجع رجال الظلم والاستبداد إلى مراكزهم الأصلية رجع المدير المذكور إلى مركزه الأصلى فاتهم اليوزباشى المذكور ظلما وعدوانا انتقاما منه على ما وقع له من التوبيخ على إهماله وقت اشتداد الهياج وسفك الدماء في عاصمة مديريتين وقد جرى شنقه علنا)[٣] فى مدينة طنطا بحضور المدير المذكور على مرامى من عائلة الفقيد وأولاده بلا شفقة ولا رحمة والحساب على الله .

وقال : أما حادثة المحلة الكبرى فقد قال فى بيانها أحد شهود العيان ما يأتى بينما كنا جالسين فى سوق السلطان بالمحلة الكبرى يوم الخميس الواقع فى ٢٧ شعبان سنة

---

(١) أقام عرابى خيمته عند كنج عثمان ، وكان يفد إليه فيها غير ضباطه وأركان حربه الأعيان والعلماء وغيرهم من ذوى المكانه وكانت خيمة فخمة قيل أنها خيمة سعيد باشا التى أهدتها أرملته إلى عرابى كهدية Blunt: secret History p. 39 .

(٢) يذكر عرابى أن يوسف أبو ديه برىء مما أسند إليه ، ويبدو أن التهمة لفقت له عن طريق إبراهيم باشا أدهم مدير الغربية . انظر المخطوط ص ٦٥٣ .

(٣) يذكر سليم النقاش إنه قبل حلول الموعد المعين لتنفيذ الحكم ببضع دقائق ورد تلغراف ينبئ أن الخديو أصدر أمره بالعفو عنه ولكن القضاء كان قد نفذ ولم يبق للعفو من سبيل . انظر مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٤٢ .

١٢٩٩ و١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ وكان الوقت بالغًا إذ ذاك من النهار حد الساعة السابعة علي الاصطلاح العربى إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من المكارين[١] وغيرهم وكلهم من السفلة الرعاع وفى أيديهم العصى والهراوى وغيرها من الأسلحة الجارحة والنارية وكانوا يجلبون ويصخبون وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم إليهم غيرهم من أمثالهم حتى وصلوا إلينا فسمعناهم ينادون (ياتجار أغلقوا حوانيتكم لأن النصارى أخذوا يقتلون المسلمين على القنطرة) فسارعنا إلى النهوض وقصدنا منازلنا وكان فى جملتنا حسين أفندى سامى نائب المديرية فى أشغال التاريع إذ ذاك (ومفتش بوليس قسم شربين الآن) فأبى أن يذهب إلى منزله قبل أن يقف على أمر المسيو كمبروس . مفتش التآريع بالمحلة الكبرى ويعلم هل أصابه شيء أولا فذهبنا معه إلى بيت المفتش وقبل أن نصل إليه سمعنا الهائجين يقولون (يا مسلمين اقتلوا النصارى وانهبوا محلاتهم فقد أمر بذلك ضابط البلد) وقد رأينا بين هؤلاء الثائرين أحد عساكر الضبطية فاستوقفناه وسألناه عن حقيقة ما يقوله الناس من أن الضابط آمر بما يقولون فأجاب بأنه لا يعلم شيئا من ذلك ثم وصلنا إلى بيت المفتش فوجدناه مغلقا وعلى بابه الجماهير الثائرة يريدون كسره واقتحام البيت لنهبه وقتل من فيه فصاح فيهم حسين أفندى سامى وفرق جموعهم ثم أوقف عند باب المنزل رجالا من خدمة المساحة وفى أيديهم المقاييس يردعون بها من يقصد المنزل بسوء ثم دخل وأقفل الباب واجتمع بالمفتش ومن معه فهدأ روعه وسكن خواطره وأقام بجانبهم إلى أن سكنت الحركة .

وأما ما كان من الأهالى فإنهم ثاروا رجالا ونساءً وأطفالا يصيحون (الله أكبر) ويهجمون على الخانات ودكاكين الملابس وغيرها ويكسرون أبوابها وينهبون ما يجدونه فيها وكان ضابط المدينة حسن أفندى فؤاد جالسا فى جوار القنطرة المعروفة بقنطرة نيروز ولم يكن معه أحد من العساكر[٢] .

واستمرت هذه الحادثة ما بين قتل ونهب ما قبل المغرب بنحو نصف ساعة فبلغ عدد القتلى ٩ رجال منهم ستة من الأروام وثلاثة من مهندسى التأريع الأوربيين وقد كانوا

---

(١) يقصد الحمارين .

(٢) ترجع أسباب هذه الحادثة إلى أن رجلين من أهالى المحلة كانا موجودين فى طنطا يوم وقوع المذبحة فيها فشهدا ما كان ثم عادا إلى المحلة وأخبرا بما رأيا فهاج الرعاع . النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٤٣ .

مقيمين فى الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلام وحماة التجأوا كلهم إلى حسين أفندى منجد مأمور مركز سمنود إذ ذاك فحماهم وحفظ أرواحهم .

وبعد وقوع هذه الحادثة حضرة[١] أورطة من العساكر بقيادة راشد باشا (حسنى الفريق) لحفظ الأمن والراحة وأقامت مدة فى المحلة لهذه الغاية[٢] .

وكاد أن يقع فى الفيوم مثل ما وقع فى طنطا والمحلة بأن أتاها رجل من مستأجرى حزب الاستبداد القديم متنكر بزى طلبة العلم قصد أحداث هيجان فيها فلما شعر به المدير الحازم (يعقوب بك صبرى) أمر بالقبض عليه فلم يسعه إلا الهرب قبل أن يتمكن من بلوغ الأرب وبذلك يتحقق بأن كل ما حصل من الوقائع المخلة بالأمن والراحة العمومية فى طنطا وغيرها كان بتدبير رجال حزب الظلم والاستبداد ليشوهوا وجه الأعمال الوطنية فى داخلية البلاد وخارجها ولأجل اشتغال القوى الحربية بإطفاء نار الفتن الداخلية عن مقاتلة الأعداء الإنكليز وكل ذلك بقصد إعادة السلطة الظالمة الاستبدادية طمعا فيما يعود عليهم من المنافع الشخصية .

---

(١) صحتها حضرت .

(٢) يذكر النقاش أن هذه الأورطة جمعت خلال المدة التى أقامتها نقودا بين الأهالى للإعانة الحربية وانصرفت . انظر مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٤٣ .

الفصل الثامن

آراء وأقوال فى شأن الأنكليز ومصر[1]

وقبل أن نأتى على ذكر الوقائع الحربية التي جرت بين الإنكليز والمصريين فى الخط الشرقى نثبت فى هذا الفصل المخصوص أهم آراء وأقوال صحف الأوربيين المتعلقة إذ ذاك بشأن الإنكليز ومصر ، قالت صحيفة الناسيونال الفرنسية .

من المعلوم أن من الصعب على إنكلترا فتح حرب بدون أن يكون لها معين فإنها بدون ذلك لابد أن تعلق باشراك الأخطار ومما نعلم من قوتها يرشدنا إلى حقيقة مقصدها ويهدينا إلى معرفة كنه أهمية الخدمة التى تلتمسها من غيرها حينما تطلب تأليف جيش مختلط .

وقالت جريدة كرسبتورج فى ٢٧ يوليو ١٨٨٢ قد تبين أن شجاعة المصريين وثباتهم أمام الإنجليز فى المناوشتين الأوليين عكسا الفكر على من يزعم من الأمة الإنكليزية أن المصريين يفرون ويتركون مراكزهم لأول نظرة يرون بها جيش الإنكليز وأن عرابى باشا يترك المملكة لهم بمجرد توجههم إلى مصر فقد حقق للناس أجمع هذا الزعم خطأ فاضح ووهم واضح وأردفت ذلك بقولها أن أسهل شىء لاستتباب الراحة العمومية هو عزل توفيق باشا وإرسال خديو آخر من الآستانة بفرمان جديد إذ يكون من الممكن حين ذاك وقوع الوفاق بين هذا الخديو الجديد وعرابى باشا فإن القوة الآن فى يده ولا يصح إهراق دماء رجال عديدة وإتلاف بلاد خصبة واسعة لأجل الخديو الحالى مهما كانت طينته ولا يليق أيضًا أن تكون الممالك الأوربية فى اضطراب مستديم من أجل ذلك .

وقالت التيمس فى ٢٧ منه قد فقدنا الزمن النفيس وأضعنا الفرص الممكنة فى استقلال مصر أولا ثم إدخالها فى حماية العلم الإنكليزى . ولكن قد اقبل الزمن الآن وصار فى اليقين أنه عند ما تضعف قوة عرابى باشا وتلج عساكرنا أبواب القاهرة ننادى باستقلال مصر ثم نشكل مجلسا مؤلفا من أعيان البلاد بالقوة القهرية ونكرهه على الاعتراف بالحماية الإنكليزية ونبذ حماية السلطان فردت عليها جريدة كوسبتورج الألمانية بقولها :

---

(١) انظر سليم النقاش : مرجع سابق جـ ٥ ص ١٥٧ ، ١٦٣ .

أنه إذا تعرضت انكلترا لهذا العمل فإنها توقع نفسها فى أشد الخطر فإن هذا الزمن ليس بالزمن السابق الذى كانت فيه دول أوربا تخشى دولة الإنكليز .

وقالت جريدة الطان الفرنسوية في ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ وكانت من الجرائد المنتمية للإنكليز ما يأتى

أن إطلاق المدافع على الإسكندرية لم يكن إلا من الأعمال القانونية وعبارة أخرى لم يكن إلا لإشغال بال عرابى باشا فى جهة الرمل وكانوا غير ناجحين فيها أثبتت أن رغبتهم قاصرة على إجراء الحركات الدفاعية وأنه لم يكن معهم من القوة ما يلزم للقيام بحركات مؤثرة وفى الحقيقة أن فى الذهاب من الاسكندرية إلى مصر عن طريق الوجه البحرى مصاعب جمة فإن فيه ترعا وجداول إذا قطعت جسورها غرّقت البلاد فحركات الإنكليز لذلك فى تلك الجهة ستكون قاصرة على حيازة المين[١] والاستيلاء على المراكز الحربية الشهيرة فى السواحل وأما الهجوم الحقيقى فيظهر أنهم سيقدمون عليه من جهة الترعة التي يشتبك طرفاها بسفن إنكليزية ولذلك فالعساكر الأوربيين ترد على بورسعيد والآتية من الهند ترد على السويس ثم تجتمع القوتان فى وسط الترعة من جهة الإسماعيلية القريبة من بحيرة التمساح عند انفصال فرعى الترعة الحلوة فوق رأس الخط المنحنى الذى هو عبارة عن سكة السويس الحديدية فالجنرال ولسلى[٢] يكون سيره إلى مصر من جهة الإسماعيلية موازيا لخط السكة الحديدية والترعة الحلوة وحينئذ يكون عرابى باشا مضطرا إلى مقاومة القوة الإنكليزية من الجهتين أى الاسكندرية والترعة ، فأما مقاومته من الجهة الأولى فالمعروف من شأنها أنه تحصن فى كفر الدوار واعتمد على ترعة المحمودية من جهة وعلى السكة الحديدية الممتدة من الاسكندرية إلى مصر من الجهة الثانية وقد جمع بحيرة مريوط وبحيرة أبو قير اللتين هما جناحا موقع حربه بخطوط استحكامات فهذا الموقع الذى يصعب الهجوم عليه من جهة الأمام لايمكن المجيء إليه من الوراء إلا من بحيرة أبو قير التي يجف بعضها فى مثل هذا الوقت وعلى كل حال فهذا الموقع يحفظ خط رجعة عرابى باشا من دمنهور إلى مصر[٣] ثم أنه يجب

(١) المقصود الموانى .

(٢) قائد الحملة الإنجليزية ، وقد حارب عرابى فى معركة القصاصين وكسبها بعد قيامه برشوه البدو .

(٣) حدد العرابيون خمسة مواقع رئيسية للدفاع عن مصر أولها فى كفر الدوار وثانيها فى رشيد ، وثالثها بين رشيد وبحيرة البرلس ، ورابعها فى دمياط وخامسها فى الصالحية والتل الكبير وكان الغرض من هذا الأخير صد هجوم الإنجليز من ناحية قناة السويس . الخفيف : مرجع سابق جـ ٢ ص ١٣٦ .

أن يخشى من هجوم الإنجليز من جهة الإسماعيلية فإنهم إذ نجحوا فيه قطعوا خط الرجعة إلى الصعيد والجأوا عرابى باشا إلى أن يختار أحد أمرين أما أن يلقى سلاحه ويستسلم في الوجه البحرى وإما أن يلوذ بصحراء الغرب . وقد لاحظ عرابى باشا هذا الأمر ووجه قوة عظيمة إلى جهة التل الكبير فهذه الجهة التى ليست صالحة لإجراء الحركات الحربية بالنظر إلى كونها محاطة بأراض سهلة قد اختارها رئيس الجيش المصرى لكونها مهمة بالنظر إلى ترتيب الجيوش فهى بعيدة عن الاسماعيلية بخمسين ألف متر غير بعيدة عن نقطة انفصال الترعة الحلوة وخط السكة الحديدية وهى منصبة على جهة الزقازيق التى تجتمع فيها خطوط السكك الحديدية الممتدة من دمياط والسويس إلى القاهرة وتتحد بها مجارى المياه المتجهة إلى الترعة وفضلا عن هذا فقد أنشأ عرابى باشا استحكامات بجهة الصالحية فوق بحيرة عظيمة فى منتصف الطريق بين التل الكبير والإسماعيلية وأنشأ خطا أماميا بجهة نفيشة بعيدا عن البلد بثلاثة آلاف متر فلذلك يضطر الانجليز إلى ضبط مواقع نفيشه والصالحية والتل الكبير قبل أن يصلوا إلى الزقازيق التي يمكنهم أن يسيروا منها إلى القاهرة .

وجاء فى الناسيونال ـ لابد أن يأتى يوم تفهم فيه فرنسا أن انكلترا لم تعمل على أحداث مهاجرة رعايا الدول جميعها ومحو أثرهم من القطر المصرى إلا لتضع فيه تنظيمات وترتيبات تلائم أغراضها من غير نظر إلى مصالح أولئك الرعايا وربما تدرك ذلك بقية الدول فيفقن من غفلتهم جميعا ثم قالت

أن الدولة الإنكليزية مضطرة إلى الاتفاق مع الدولة العثمانية وإذا لم يعمل المستر غلادستون على هذا الاتفاق وقعت إنكلترا فى سياسة طيش وتهور تعرضها للأخطار وأن سقوط وزارة فرنسينيه قد أضر بسياسته غلادستون ضررا عظيما وقالت جريدة «غازت دى لاكروا» في ٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ أن انكلترا ليس لها حق فى الاستيلاء على ترعة السويس بناء على رضاء الخديو لأن هذا الرضا ، ليس فى محله بالنظر إلى حقوق الأمم وليس للخديو الحق فى ذلك وإنما هو راجع إلى السلطان وحده وفضلا عن ذلك فإن المعاهدة المختصة بالملاحة فى ترعة السويس تجيز للخديو أن يساعد مساعدة جزئية ولا تبيح له أن يطلب مساعدة خارجية ، وقالت فى ١٧ منه أن الأعمال الحربية التى ابتدئ بها فى كفر الدوار إذا استمرت جارية على ما هى عليه اضطر المؤتمر إلى توقيف جلساته لأنه لا فائدة فى استمرار انعقاده منتظرا نهاية أعمال لا يمكنه مراقبتها ولا يؤخذ

من هذا انحلال الاتفاق بين أعضاء المؤتمر أوالسكوت عن التوسل لاستبقائه ومن توهم ذلك فقد أخطأ خطأ مبينا فإن نهاية المسألة المصرية ستكون كبدايتها مسألة أوربية[١] . وجاء فى البوست[٢] أن الحكومة الإنكليزية ستسوق نفسها إلى أخطار هائلة إذا استمرت مصرة على سياستها فى مصر خصوصا ما يتعلق منها بترعة السويس .

وقالت الغازت ناسيونال التي تطبع في برلين أن خبر تبوء الإنكليز ـ لمدينة السويس لابد وأن يكون مر المذاق عند الفرنسويين وفى الحقيقة أن جميع الناس مجبورون على الاعتراف بأن صنع فرنسا محفوف بخطر يدخل الترعة ضمن أملاك الإنكليز ومن رأى الموسيو دى لسبس وهو عاقد النية علي الانفراد في مقاومة الإنكليز الذين ينفذون إجراءاتهم بلا مبالاة وأن كل حر يتأثر من هذا المنظر المحرك للقلوب ، ثم أن مجلس النواب ولئن يكن قد اقترع على معارضه أى عمل فرنسوى شديد فى مصر إلا أن رئيس الجمهورية لايمكنه أن يتخلص مما هو واجب عليه من حفظ مقام فرنسا فى الخارج فإن الأمور لو تركت ومجراها الطبيعى لكان ذلك ملائما لمآرب الإنكليز .

وأخذت جرائد فيينا تحض الدولة العلية على المقاومة منها جريدة (النوفل بريس ليبر) فإنها حرضت الباب العالى على رفض مقترحات انكلترا بقولها أنه لو قبلها لنفرت منه قلوب الدول المعضدة له فى المؤتمر . وقد حذت جريدة لاغازت الماند حذوها فى تمحيص الدولة العلية النصح وأظهرت لها أن انكلترا هى الدولة الوحيدة فى مضادتها أما بقية الدول فهى مع العثمانيين .

وزادت جريدة (الفرمد نبلاط) فى التصريح إذ طلبت من انكلترا أن تتبع فى إجراآتها سير السلطان - لأنه صاحب السيادة فى تسيير الإجراآت المصرية .

وما انفكت الجرائد الإيطاليانيه تؤيد فى ذلك الوقت سياسة الدولة العلية ضد انكلترا كجرائد النمسا . فقالت جريدة (الديربتو) أنها لا تستطيع أن تتصور كيف أن انكلترا تعارض فى تداخل الباب العالى فى مصر مع كونها أول من طلبه .

---

(١) مما ورد فى النسيونال أيضًا أن الترعة ليست نافعة لإنجلترا وحدها وإنما هى لمنافع الدول جميعا وأن سلامة مصر ورفاهيتها موقوفتان على دخول التمدن الأوربى فيها لا على جعلها تحت حكم الإنجليز . انظر سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٦٤ .

(٢) كانت هذه الجريدة من الجرائد المعارضة للسياسة البريطانية .

وإقامت الديكريتو الحجة على انكلترا فى استيلائها على الترعة وقالت أن هذا الاستيلاء مما يزيد فى الخراب والدمار حيث يضطر المصريون إلى المحافظة على استقلالهم .

وفى ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢ أقيم فى قاعة ريڤولى بباريس احتفال سابق عقده قوم الفعلة وتليت فيه مقالات مهمة بشأن المسألة المصرية فأجمع الخطباء على مقاومة أى تداخل كان على ضفتى ترعة السويس وقبحوا إشهار انكلترا للحرب وذهب أحدهم (كلوفيس هوجس) وهو من النواب إلى أنه عند ظهور المشاكل التونسية استحسن جميع الأحزاب ومنهم الجمهوريون المقاصد الحربية ما عدا حزب واحد وهو حزب الفعلة فإنه قاوم تلك السياسة ، وبعد أن صفقت الحفلة للقرار الموجب للسلم انتقلت فى الحال من هيئتها السلمية إلى هيئة حربية إذ أنها أطالت التصفيق عندما أعلن الموسيو (المان) أنه يُحب على البعثة الجمهورية مناصبة العهد الإنكليزى العداء اقترعت بعد الاستحسان على القرار الآتى .

أن الحفلة قد اقترعت علي التنديد بالحكومة والمجلسين النيابى والسناتو (مجلس الأعيان والشيوخ) وتعلن أنه من الواجب على حزب الفعلة ليس مغالية كل تداخل حربى فقط بل معارضة كل حيادة من شأنها أن تبيح للإنكليز البطش بأمة نرى من فرائضنا المحاماة عنها وإرشادها إلى طريق حريتها ، أ . هـ .

وأعلنت جريدة (الغازت ناسيونال البرلينية) للإنكليز أن أوربا يمكنها معاقبتهم إن لم يراعوا حقوقها وحقوق الدولة العثمانية .

وقالت جريدة (النو فولى فريجبا) الروسية فى عددها الصادر فى تاريخ أول أغسطس سنة ١٨٨٢ أن المخابرات دائرة بين انكلترا فى آخر الأمر إلى أن تنكر كل ما صدر عنها من الأقوال التى جاء فيها أن صدرها ينبسط لمساعدة أى دولة على اعادة النظام إلى القطر المصرى إذ لا يمكنها أن تقبل مساعدة الترك ، وقد أوقعتها الدولة العلية فى موقع مشوه لوجهها وأخذت تستهيج أفكار الدول عليها بإظهار أعمالها الوحشية فى الاسكندرية(١) .

وقالت فى عددها الصادر بتاريخ ٢ أغسطس أن أوربا لم تبد جراءة ولا إقداما فى

---

(١) انظر سليم النقاش : جـ ٥ ، ص١٦٥ .

حماية مصر فهل تضرب يا ترى صفحا عن حفظ نفسها وحماية طريقها البحرى حيث لها منافع غزيرة ومصالح كثيرة ولكن مالنا الآن وللدول فالذى نعلم أن دولتنا أظهرت سياستها فى هذه المسألة بما جاء عن لسان نائبها فى المؤتمر من أننا نعتبر المسألة ذات قسمين فالقسم الذى يجب أن نتداخل فيه هو خليج السويس ومما يسرنا امتناعنا من التداخل فى الأضحوكة التى وسمها الإنكليز بوسم إعادة النظام فى مصر أخذا على عيون الدول واستخفافا بالأمة المصرية .

أما الإعلان الذى قدمه نائب دولتنا إلى المؤتمر فقد تضمن الاعتراض على الدولة الإنكليزية فى أمر الأعمال التى اتخذتها فى مصر ومن شأنها تخريب البلاد وإعدام حكومتها لإعادة النظام اليها وقد آن للدول أن تتفق على حماية ترعة السويس بالوسائط الفعالة بالوسائل السياسية .

وقال جريدة النوفوستى أن من مقتضيات مصالح أوربا معارضة إنكلترا فى تنفيذ مقاصدها ثم قالت أن حركة الانكليز الأخيرة هى المرة الثانية التى أطلقوا فيها قنابلهم بغير حق إذ أن الأمور التي حدثت لم تكن لتستوجب هذه الفعلة فإنهم رموا فيما سبق مدينة كوبنهاجن[1] بنار المدافع للحق الذى أطلقوا من أجله الكرات المهلكة على الاسكندرية وقالت بعد ذلك متهكمة ولئن تكن مدافع الإنكليز قد نجحت فى تخريب مدينتى كونبهاجن والاسكندرية إلا أنها كانت فى عجز يوم صوبوها على حصون سياستبول أيام حرب القريم[2] .

ومن مقال (النوفوربى فريميا) أن الحوادث تعدو فى سيرها عدوا سريعا ونحن لا نثق بما أعلنه المستر غلادستون من أن انجلترا تجهد نفسها فى منع ما عساه أن يطرأ من المشاكل الأوربية أو الحرب ولهذه المشاكل وجود من قبل وهى كل يوم فى ازدياد وجل مرادنا هو أن يقطع عن حركة الأفكار التى ظهرت فى أوربا والشرق الإسلامى فى أى أمر شأنه تقويتها حتى لا ينجم عنها ملاطمات ومصادمات فى قلب أوربا ولا ينشأ عنه اضطراب عظيم يلحق بالسلم العام[3] .

---

(١) عاصمة الدنمارك .
(٢) يقصد حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية .
(٣) انظر سليم النقاش جـ ٥ ص١٦٦ .

وألقى اللورد سالسبورى[١] زعيم حزب المحافظين فى مأدبة أعدتها جمعية الفعلة الأحرار خطابا ندد فيه بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية ومما جاء فى هذا الخطاب متعلقا بالحقوق الكائنة بين انكلترا والدولة العلية قوله :

جرت عادتنا فى السياسة من قديم الزمان بموالاة الدولة العلية والمحافظة علي روابطها بيننا وقد نقضت سياسة الحكومة الحاضرة هذه العادة رغبة فى استمالة فرنسا إليها والاستحصال على مأمورية من قبل الدول ولكننا لم نحصل على واحد من الأمرين وغاية ما استفدناه من هذه السياسة هومعاداتنا لدولة حرصنا على محالفتها ومصادقتها زمنا مديدا .

وجاء فى جريدة التساندرد ـ لو كان السلطان وحده هو الذى يعارض طلباتنا لكنا غضضنا النظر عن معارضته واعتبرناها ملغاة لا عمل لها ولكن لدينا براهن كافية تحملنا علي الاعتقاد أن للسلطان عدة مشيرين فى هذه المسألة وبعضهم ليسوا من الاتراك وليس لهم من فائدة فى فصل أمور المملكة العثمانية ومشكلاتها ـ يدلنا على ذلك منظر جو السياسة المعكر بغيوم الشك والارتياب والخيانة والغدر[٢] .

ونشرة جريدة السوليل فى ١٩ أغسطس نص كتاب بعث به الموسيو (ايميه دى لسبس) نائب مجلس إدارة شركة الخليج إلى وكلاء الدول المقيمين فى باريس وهذا معربه :

(سيدى) أطلعكم الموسيو فرديناند دى لسيس فى ٨ يوليو علي التعليمات التى كان قد أصدرها بالتلغراف لوكيل شركتنا العمومى بمصر فى شأن حيادة الترعة وكشف لكم أيضًا عما اختلج بصدره من أنكم لاشك ترون من الأوفق إعلان حكومتكم بما لكل دولة بحرية حاصلة على حق حرية المرور بالترعة من ضرورة إرسال سفن حربية للملاحظة فى بورسعيد ثم أرسل هذا الموسيو فى ٤ أغسطس خبرا لمجلس إدارة الشركة يذكر فيه أن الأميرال الإنكليزى أعلنه بما استقر الرأى عليه رغما عن الحجة التى أقامها الموسيو المذكور من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتبوء الترعة مستندا فى ذلك على كتاب من الخديو يسوغ له حرية العمل ولأجل ذلك التأم المجلس التئاما غير اعتيادى وأصدر قرارا أتشرف بإيصال نسخة منه إليكم اتباعا للتلغراف الوارد من الموسيو دى لسبس عن

---

(١) وزير خارجية بريطانيا .

(٢) سليم النقاش : المصدرالسابق جـ ٥ ، ص ١٦٧ .

طريق الاسماعيلية وفى هذا التلغراف أعلننا الموسيو المذكور بأن تظاهر قواد الإنكليز الحربى فى بحيرة التمساح مما يهيج أهل البلاد وربما ينشأ عنه أعمال حربية فى خط الترعة الحر وقال أن اتحاد الدول على إرسال سفن حربية لحماية الترعة بدون إنزال عساكر هو أعظم حل يرام إجراءه ويكون من نتيجته منع وقوع التعدى المتوقع على حيادة ترعة تكفل بها السلطان لسفن الدول العمومية

كتب بباريس فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٨٢ نائب مجلس الإدارة

(الإمضاء .

(ايميه دى لسبس)

وورد فى جريدة (له بى) الفرنسويه بتاريخ ٥ أغسطس أن أغلب الجرائد الألمانية مازالت مستمرة على إظهار عدوانها للإنكليز والمترائى أنها تود لو أصاب الإنكليز مصيبة فى القطر المصرى ، وقالت من ضمن نبذة سياسية أن ارتباك المسائل السياسية على ازدياد فمن جهة نرى الدولة العلية قابلة للتداخل فى القطر المصرى لكنها تشترط علي انكلترا اخلاء من الديار المصرية ومن الجهة الثانية أن دولة بريطانيا تريد أن تقيم بالقطر استنادا إلى ما بذلته من المصاريف لتتمادى فى أعمالها ، ولكن من المعلوم أن هذه الدولة تميل إلى الربح أكثر من المشقة ولذلك رغبت أن يكون لها رفيق بل آله تستخدمها فى مصر فعرضت هذا الأمر على دولة بريطانيا فرفضته والشائع من جهة أخرى أن دولة المانيا عرضت هذا التداخل بمقتضى إذن يصدر من جميع الدول الأوربية ، تلك هى المسائل التى ينبغى البحث فى كيفية حلها أما من جهتنا فأنا لا نبحث فيها فى هذا الوقت والشىء الوحيد الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن دولة بروسيا هى الآخذة فى تسيير أوربا فى طريق المسألة المصرية وأن برلين هى لا شك مفتاح بابها .

وأخذت جريدة (الفولوا) عن مكاتبها فى لوندرة[1] القول الآتى :

إن تنديد حزب المحافظين وحزب الأحرار معا بالمسيو غلادستون على ازدياد يومى فإنهم يعدون سياسته مهلكة بعيدة عن الصواب ويتساكون هل هذا هو الرجل الحر الذى تحوّل عن مشربه الماضى بوضعه القانون القهرى وبمحاربته لمصر ، هل فاته العلم

(١) يقصد لندن .

بسياسة انكلترا لم تكن دولة الانكليز فى سنة ١٨٤١ على وشك اشهار الحرب على فرنسا بخصوص مصر واتحدث لذلك مع أربع دول كانت هى الرئيسة عليهن ولكن نقول الآن واأسفاه قد تبدلت الأزمنة وتغيرت الأحوال .

وقالت جريدة ليون . إن عدد أعوان الخديو كل يوم فى نقصان وقد انضم المصريون جميعا إلي عرابى باشا منذ أن قلده مجلس الأعيان الذى التأم بالقاهرة رئاسة الجيش المصرى أما معدات الزاد فهى متقاطرة لمركز الجيش من جميع الأنواع والامدادات متواردة مع ذوى النفوذ من العربان وإن تقدم الجيش الإنكليزى للطعان كان من الخاسرين وإن مكث فى مراكزه بلا عمل كان ذلك مبرهنا على عجزه المطلق .

وقالت جريدة الناسيونال أن طالما تكرر على الاسماع أن مخاصمات الأحزاب فى بلاد الإنكليز تستتر عندما يظهر أن منافع الأمة العمومية لا تتم إلا فى الاتحاد غير أن الفطرة الإنسانية تكاد أن تكون واحدة فى ساكنى ضفتى نهرالمانش (انكلترا وفرنسا) .

وقالت إن جيش الجنرال (البيزون) المعسكر فى الاسكندرية وضواحيها لايمكنه أن يخطو خطوة واحدة فإن المدد لا يأتيهم إلا بالبطء الشديد وهذا مما يدل على ضعف قوة انكلترا العسكرية أما الحكومة العثمانية فلا تزال حافظة لمزياها ومصرة على تنفيذ سيادتها وقد خاب اللورد دوفرين فى طلبه منها أن تعلن فى الحال عصيان عرابى فان السلطان الذى يريد أن يكون له علائق وروابط مع جميع الأحزاب لايقدم علي أمر مثل هذا إلا بعد التبصر وهو ينظر إلى هذا الطلب بعين الاستغراب ويرى من الواجب ، تدقيق النظر فيه خصوصا وأن مأمورية درويش باشا لم تظهر الحقيقة (أى حقيقة العصيان) ولذلك فإن من رأى الباب العالى أن ينظر فى الأمر بعد الحلول بمصر وأن تردده ورفضه ذلك الطلب قد أغضبا دولة انكلترا وهى تتهافت الآن علي الدول لأجل أن تكلفهم بتحمل القسم الأعظم من مسئولية الإجراءات الحربية فى مصر إلا أن فرنسا شكرتها على حسن هذا الالتفات رافضه لذلك التكليف ، وايتاليا غضبت إذ رأت نفسها تعامل بالاحتقار ومالت إلى الدولة الألمانية لتوقيف سير الطمع الإنكليزى . وأما الروسية فقد تحول ما كان بينها وبين انكليزا من الاتفاق الذى ثبت من منذ تولى المستر غلادستون رئاسة الوزارة إلي منافرة تكاد أن تكون مضاربة ولم تنل انكلترا رضاء أوربا العمومى لأن المعلومات التى وصلت إلى السير شارلس ديلك لم تكن مطابقة لواقع الحال .

وعقدت فى تلك الأثناء جلسات فى مجلس العموم دار فيها البحث على الأعمال الجارية فى مصر وحالة المسألة المصرية فعرض المستر غلادستون فى إحداها على المجلس طلبا مؤداه الإقرار على سلفة تبلغ ٢٣٠٠,٠٠٠ جنيه إنكليزى يصرف منها ١٤,٠٠٠,٠٠ للأسطول والباقى للجيش ثم قال وفى الحقيقة أن الجانب الأعظم هو للجيش فإن الأسطول يتناول نفقات سفر المشاة وبواسطة هذا المبلغ يمكننا أن نرسل إلى مصر ١٣٤٠٠ جندى من المشاة و٢٤٠٠ مؤلفة من ٣١٠٠ رجل وفرقة احتياطية مؤلفة من ٣١٠٠ رجل ترسل فيما بعد .

ولأجل تدارك العجز الذى يترتب على هذه السلفة لايبدأ بها إلا فى الستة الشهور الأخيرة وبذلك تبلغ الزيادة بنسا واحدا ونصف بنس فى كل الإيرادات عن السنة بتمامها .

ثم استمر فى خطابه إلي أن قال ، نحن الذين رفعنا توفيق باشا الخديو الحالى إلى عرش الخديوية المصرية وآلينا على أنفسنا أن نرشده فى طريق أعمال حكومته وقد كنا مع ذلك معترفين دائما بسيادة السلطان على مصر وهو الذى قصدناه فى أول الأمر وحثثناه على التداخل لبث الراحة وليس لى أن أبدى رأيى فى سياسته ولكننا اليوم فى حال وجود المشاكل والقلاقل المصرية لاينبغى لنا أن نؤمل أو ننتظر من القوة الحربية السلطانية دواء شافيا للحالة الراهنة وقد عرض التداخل على الباب العالى من منذ شهور فلا حاجة اليوم تبعثه على قبول أمر طالما رفضته رغما عن الجهد الجهيد الذى بذله رجال السياسة ولما أن رأينا الدولة العثمانية غير راضية أن تكلف نفسها بإعادة النظام عرضنا المسألة على جميع الدول الأورباوية أولا لاجتناب التظاهر بالانفراد فى الأعمال . ثانيا : لأن أوربا لو تكلمت لكان لكلامها وقع عظيم ولاكن[1] أعلم أن من الصعوبة حضها على التكلم (تصفيق من حزب المعارضة) وإلى الآن لم نتحصل منها إلا على نتيجة غير مرضية معناها أن الدول ليس من نيتها أن تشترك فى عمل حربى فى مصر ومع ذلك أظن أن سياستنا الحالية وقعت لديها موقع الاستحسان .

فوقف السير (ستافورد نورشكوت) وأقام الحجة على رئيس الوزارة فى بعض كلامه فقال ـ أتتجاسرون أن تقولوا أن المراقبين هما اللذان أوصلا مصر إلى حالتها الفوضوية أن هذا يعد تنديدا بسياسة الوزارة السالفة وسأدافع عنها عند الاقتضاء وقد كان من الواجب عليكم أن لا تلجئون إلى الجدال فى هذا الأمر الآن فإنه من الأمور التى تبدل هيئة

(١) كذا فى النص وصحتها ولكن .

المسألة التى نحن بصددها . ثم قال : ولقد أنكرت الحكومة كونها أرادت أن تعاكس الباب العالى نعم إنها (كما قالت) دعته للتداخل ولكنها فى هذه الاثناء حيرته بإرسال أسطولها إلى الاسكندرية وبتجهيزاتها الحربية أما من جهته اتفاق فرنسا وانكلترا فلم يكن له أثر فى الوجود فإن كانت فرنسا وانكلترا اتفقتا اتفاقا قلبيا كما تزعم الحكومة أقول أن هذا الاتفاق حصل على طريقة الموسيو برايث وغلادستون حيث أنه كلما لزم الشروع فى العمل رأينا الدولتين منفصلتين وبرهان ذلك ما نشاهده اليوم عيانا وكل الخطأ عائد على الوزارة المترددة التى ترأست على الحكومة الإنكليزية .

وإنى أرى أن انكلترا مضطرة إلى الانفراد فى الحملة على مصر وهذا ما يورثنى البلبال فهل لدى غلاوستون برهان على وثوقه بمساعدة الدول لنا مساعدة أدبية ، أن المسألة ذات أهمية كبرى ولذلك أرجو أن يجاب عنها قبل إقفال باب الجدال .

وبعد ذلك نهض اللورد (ايلكو) وقال ـ إن المجلس مستعد للاقرار على السلفة للمحاماة عن الخديو وترعة السويس ولكن بما أن لانكلترا ممالك إسلامية فالمجلس لايصادق على حرب فى مصر إلا مع اشتراك الجيش السلطانى فيها ثم إن العساكر الإنكليزية قائمة على أهبة السفر إلى مصر بدون إذن من أوربا فلو فرضنا ونجحنا فى أعمالنا أفليس من نتيجة ذلك النجاح أن تثير علينا رعيتنا الهندية الإسلامية فضلا عن أننا لانحصل على أدنى فائدة من أعمال التجريدة وذلك لأن جيوشنا إذا انتصرت بعد بذل دمائنا وأموالنا فالدول الأوربية هى التى تكرهنا على الحل الذى تختاره وبما انه استقر رأينا على الذهاب إلى مصر فلا أقل من أننا نستعين بالباب العالى ثم إن محاربة عرابى باشا لايراها رعايانا الهنود ولا العرب جميعا حربا دينيه .

ثم قال الكولونيل (ستانلى) وقال - لست من المنددين الآن بتجهيزات الحكومة الحربية فإن الذى ينشئ مصاعب الحكومة الان يكون خارجا عن دائرة الوطنية ولكنى انتقد على سياسة الوزارة فى إطلاق المدافع على الاسكندرية وانذرها بالخطر الذى يحدث من اقتحام حرب تتعلق بها مصالح مختلفة لأوربا حالة كوننا لاحليف لنا هذا وأنى أخشى أن تكون السلفة المطلوبة غير كافية فنقع فيما وقعنا فيه أيام حرب القريم(١) إذ قلت الذخيرة والمؤونة غير مرة وكان السبب فى ذلك عدم وجود نقود كافية .

---

(١) يقصد حرب القرم .

إلى أن قال - وذهبت الحكومة إلى أن التجريدة لاتمكث سوى ثلاثة شهور وقد قيل كذلك أيام حرب القديم ولا تخفى عليكم المدة التي استمرت فيها تلك الحرب .

وأخال أن الحكومة ستتردد فى الأمر على أمل أن يحدث أثناء الشهور الثلاثة ما يوجب اشتراك دولة أخرى فى التداخل ولكن هذه السياسة تعد سياسة يومية فإن كان لكم حقيقة مقصد مقرر كما تزعمون فاسلكوا فى طريقة ولا تعتمدوا فى الوصول إليه إلا على أنفسكم وابذلوا كل ما ترونه لازما لنواله أى اطلبوا منا من الآن معظم ما يلزم للتجريدة من الأموال وأنى التمس من الحكومة أن تتخذ الطرق التي يمكنها بها أن تبرهن للعالم الإسلامى على أن محاربة انكلترا لمصر ليست محاربة دينية .

وقال السير ويلفرد لوزن . المعروف من حزب الأحرار أن الحكومة قد خالفت قواعد الحرية واقتدت بسياسة «بيكونسفيلد» فإن السعى فى بث الراحة وإعادة النظام لايتأتى بإطلاق القنابل وإشهار الحرب وسفك الدماء لمنع أمة ما من تدبير أحكامها بنفسها ولقد أظهرت لنا رؤساء المصريين فى صورة خائنين وهكذا نظر الرجال المدافعون عن الحرية فيما سلف وليس بخاف أن كل ما أتى به التاريخ من الأعمال الجسيمة كان الباعث عليها أحسن الرجال وأوفرهم ذكاء .

وقال المستر ريشارد . إنى ألقى كل تبعة الأزمة على عواتق المراقبين فإن المصريين قد نفروا من توظيف الأوربيين فى مصر فمن الغريب أن نسمع السيد شارلس ديلك يقول أن انكلترا اليوم تحارب لانقاذ مصر من يد الموظفين الأوربيين .

وقال السير لوزن ، أن رئيس الوزارة أعلن من مدة ١٥ يوما أننا لسنا فى حالة حربية فهلا تدل الاستعدادات المتخذة اليوم على الحرب المطلقة .

رقال المستر غلادستون . لسنا الآن فى حال حرب فإن الحرب لا تشهر على حكومة أجنبية إلا إذا كان لهذه الحكومة وجود أوانها تكون فى حالة تمكنها من المخابرة معنا كنظيرتنا وفى الحقيقة أن أعمالنا الحربية ليست إلا عبارة عن تداخل لمساعدة حاكم على رعاياه .

وقال البارون ورمس ، أن تبعة المسألة المصربة عائدة على الحكومة الإنكليزية فإنها صرفت زمنها فى التظاهرات الباطلة كلائحة الدولتين والبلاغ الأخير وإعلان تنزهها عن الأغراض كل هذه الأمور جعلتنا فى مقام سخر به المصريون وبعثتهم على مقاومتنا ثم نفرت منا قلوب الدول الأوربية ، وقال المستر بورك ، أن الحكومة قد ارتكبت خطأ كبيرا عند احتقارها لسلطة الباب العالى وبهذه الكيفية هاجت عليها خواطر المسلمين ثم قال :

لم بالغتم فى مدح التداخل فى مصر أن هذا لسؤ تبصر وتناقض بين ثم أين إعلان تنزهكم عن الأغراض وقال السير ستافورد نورثكوت ، أما من جهة السلفة فأنا نقر عليها لضرورة إرسال التجريدة إنما هذا لا يمنعنا من التنديد بسير الحكومة قال :

ولقد أفرط المستر غلادستون فى إعلان تنزهه عن الأغراض ومن المستحيل أن نقول للمصريين أن محاربتنا لكم هى بقصد إرجاع السلم فإنهم لا يصدقون ذلك حيث أن محاربتنا لهم هى فى الواقع دفاع عن مصالح انكلترا فمن اللازم حينئذ أن نعلن ذلك خوفا من أن أوربا تناقضنا فيما بعد فى مصالحنا عند ساعة الحل النهائى ونحن مستعدون للإقرار على كل ما تطلبونه بشرط أن يكون مسببا عن انفرادكم فى العمل إلا أنه إذا كانت نتيجة أتعابنا ونفقاتنا غير مقيدة فالوزارة تسقط وعليها غضب الأمة بأسرها ثم قال :

وقد ذكر غلادستون فى كلامه على المراقبين أن الطريقة التي تشكل بمقتضاها قلم المراقبة كانت على هيئة لابد أن تحدث مصيبة ما فقد كانت عبارة تداخل مستمر فى أمور المصريين مهين لهم .

وجاء فى جريدة الناسيونال الفرنسوية من فصل سياسى فيها ، ان غلادستون(١) لايقدر أن يتغلب على سيره التهورى ولذلك فهو يميل فى مبدأ كل أمر إلى حله بالقوة وقد روى فى مسألة دوليسينو هائجا يكاد أن يمر من بوغاز الدردنيل لمحو الدولة العثمانية وتداخله هذه المرة فى مصر وأن حمل على ما لانكلترا من المصالح فيها إلا أنه قد انفرد فى الحملة على ذلك القطر غير مبال بالباب العالى ولا بأوربا .

ومن التهور الذى كانت عاقبته خراب مدينة الاسكندرية يرى أن الرجل الذى بث الإصلاح فى انكلترا أو دافع عن ارلندا وعادى بيكونسفيلد لأجل أعماله الخطرة قد غفل عن سياسته الخصوصية ولحق باخصامه السابقين وصار هو أيضا حامى حمى الدولة

---

(١) رئيس وزراء بريطانيا ، وتتحمل حكومته تبعه ضرب الاسكندرية ، وعدم الارتباط بالمواثيق والعهود الدولية .

البريتانية نعم أننا لا نثق بكونه تمذهب بمذهب بالمرستون[١] بل نحن مؤكدون أنه يأمل أن يوفق بين طريقته الأصلية وهذه الحركة الحربية التى لم تخطر لأحد على بال ولكننا نسأله لو أن إنسانا سلك فى منهجه سياسة طالما ندد بها فضلا عن كونه ليس ذا قابليه لالتزامها فهلا يعد ذلك مخالفة للتجارب التاريخية .

إن الأعمال التى اقتحمتها وزارة لوندرة جسيمة جدا ولاشك فى أن غلادستون لم يتبصر فيما جلبه إطلاق المدافع على الاسكندرية من الصعوبات الجالبة للأخطار ومن هذا يتضح جليا تساهله فى الاقتداء بسياسة غيره .

وقد كانت مساعدة فرنسا الفاتنة للإنكليز فى أعمالهم غير خافية على ذى عينين وربما كان تعود الإنكليز على فقدان الادراك فيما يتعلق بسياسة فرنسا حاملا لهم على وثوقهم برجوع غمبتا[٢] للوزارة مرة ثانية ثم أنهم وجدوا أن الدولة العلية أحقر من أن تتداخل للمساعدة وشارلس ديلك . قد ظن أن سكوت بسمرك[٣] المخيف هو استحسان لأعمال انكلترا ولكن غابت عنه الحقيقة ولم يعرفها إلا فيما بعد ففرنسا كانت قد اشتركت مع انكلترا بلا عوض ولكنها رأت أن تتدارك السلامة فى بلادها واعتبرت بعداوة الدول الباقية الواضحة من شهر يناير والروسية تخلت بالكلية عن الاتفاق الإنكليزى وعندما رأت الباب العالى فى احتياج إلى ثلثمائة ألف جنيه ينفق منها على التجريدة المصرية سهلت له الأمر وذلك بأن أعفته هذه السنة من دفع القسط الأول من الغرامة الحربية التي لها عليه من عهد حرب سنة ١٨٧٦ .

وقالت جريدة التيمس : أن الباب العالى استدان من البنك العثمانى ثلثمائة ألف جنيه لينفق منه على التجريدة المصرية وبالنظر إلى احتياجه الشديد إلى ضمان يقدمها للبنك رأت حكومة الروسية أن تسهل له الأمر فتركت له هذه السنة القسط الأول من الغرامة الحربية التى لها عليه ولا شك فى أن هذا الخبر يوضح إيضاحًا جليا سياسة الروسية التى انتهجتها فى المسألة المصرية .

---

(١) اللورد بالمرستون Lord Palmerstone رئيس الحزب الليبرالى فى بريطانيا ومن الشخصيات القيادية فى حركة الاصلاح الليبرالى فى القرن التاسع عشر وقد توفى فى أكتوبر ١٨٦٥ .

(٢) مسيو جامبيتا Gambetta كان رئيسا لوزراء فرنسا وقتها ، ولكن وزارته لم يكن لها النجاح ولم تجد التأييد الكافى لها ولذلك لم تدم سوى ثلاثة أشهر (فى نوفمبر ٨١ إلى يناير ٨٢ وخلفه المسيو دى فريسينيه .

(٣) هو المستشار الألمانى أو توفون بسمارك .

وقالت جريدة الميموريال ديبلوماتيك . قرر المؤتمر أن صيانة مرور السفن فى ترعة السويس متعلقة بمنافع أوربا وظهر مما دلت عليه قرائن الأحوال أنه سيحل المسألة المصرية بأجمعها متبعا فى حلها القواعد والأصول الذى تأسس عليه الاتفاق الأوربى ولا يمكن أن تؤثر عليه إجراءات انكلترا الحربية بالاسكندرية وإن كان يظهر لنا بمزيد الأسف أنه فى أمل هده الدولة أن تصدق بهذه الإجراءات العبارة المنسوبة إلى الموسيو بسمارك وهى الغلبة تعلو على الحق . وإنا نقاوم أشد المقاومة ما ألقاه المستر غلادستون من الدسائس اعتبارا من تاريخ انعقاد المؤتمر ولا نخشى فى ذلك أن يقال أننا من ذوى الغايات فإننا كثيرا ما برهنا فى هذه الجريدة على كوننا نحترم الأمة الإنكليزية احتراما فائقا لاسيما وأننا لسنا مستقلين فى هذه المعارضة بأفكارنا ولكنا مترجمون فيها لأفكار الجميع فى أوربا .

ثم إن الإنكليز الذين تأثروا تأثيرا شديدا قبل هذا الوقت بخمس سنين (من وقت حرب الروسية) .

من إجراءات الموسيو غورتشاكوف لايمكنهم أن ينكروا الآن ما فى إجراءات الحزب الحر من عدم احترام الهيئة الأوربية فإن الروسية (مع كون مؤتمر برلين لم يعقد بالتماسها وعساكرها حول الآستانة) دخلت فيه رأى المؤتمر ، ولم يخطر ببالها أثناء مداولاته أن تعمل أعمالا حربية ينشأ عنها من الأمور الواقعية ما تستند عليه فى معارضة آراء الدول . أما إطلاق المدافع على الاسكندرية فإنه من حيث كونه عملا حربيا ليس له من الأسباب ما يوجب كونه موافقا للحق فى واقع الأمر ، والدول وإنكانت[1] لم تمانع انكلترا احتراما لهذه الأمة إلا انها لم تصدق على هذا العمل المخالف للأصول الدولية فان انكلتره كانت أثناء انقذاف نارها مسالمة للسلطان المعروف حاكما على مصر ولم ينتج عن ذلك العمل الحربى سوى تخريب مدينة غير حصينة وهى أعظم مدن سواحل أفريقية الشمالية ثروة وغنى وجلب العناء على أهاليها الذين لم يجنوا ذنبا ثم جعل قسم عظيم من الأوربيين الذين كانوا يتمتعون بها فى شدة الافتقار والاعسار . وما حدث فى الاسكندرية بعد ذلك من الذبح والحريق فهو إن كان مقصورا أو مترتبا على اختلاف فى التدبير منسوب إلى السياسة التى أوجبت إطلاق المدافع على الاسكندرية .

---

(١) كذا فى النص وصحتها وإن كانت .

وأما بالنظر إلى القواعد الدولية فليس هناك من الموجبات ما يجعل الإجراءات الإنكليزية موافقة للحق ، أما منافع انكلترا الناشئة عن كون ترعة السويس طريقا إلى البلاد الهندية فلا يصح أن تكون سببا حقا موجبا لتلك الإجراءات لأن هذه المنافع مهما كانت واجبة الاحترام لاتكون أكثر من منافع الباب العالى ومن منافع أوربا بجملتها فإذا كانت انكلترا تقول أن من حقوقها المحاماة عن الهند فللباب العالى الحق الصريح فى المحاماة عن بلاد هى أقليم من أقاليم مملكته . ولكل من الدول الأوربية الحق المبين فى حفظ العهود والمواثيق التى بينها وبين الدولة العلية وعدم المساعدة على نقضها ولذلك نقول أن المدفع الإنكليزى لايخل بحقوق أوربا كما أن ذلك لم يكن للمدفع الروسى ، والذى يمكن أن يقال فى هذا الوقت هو أنه لايوجد الآن بمصر حكومتها الأصلية والخديو ليس حائزا لقوة الحاكمية على البلاد فإنه تحت تصرف الأميرال الإنكليزى ، ولايمكن اعتبار هذا الأميرال حاكما قانونيا لمصر فقد أقامت انكلترا نفسها مقام ثلاث قوى : قوة السلطان الذى هو سيد البلاد وقوة الخديو الذى كان الحاكم القانونى وقوة الدول الأوربية الموقعة على المعاهدات المتعلقة بالدولة العثمانية .

وأنا لانشك فى أن هذه الدولة يمكن أن تكون فى زمن ما خارجة عن دائرة حكم أوربا بالنظر إلى موقع جزيرتها وقوتها البحرية ولاكنه[1] لايوجد رجل من رجال الحكومة الإنكليزية يتصور أن القوة يمكن أن تكون قانونا لأوربا وأنه لايمكن لأحد أن ينكر الوقت الذى يجب فيه أن تلتزم انكلترا باحترام حقوق الدول ومنافعها الواجبة الاحترام . ، ولنختم هذا الفصل كما بدأناه فنقول أنه بالرغم عن انكلترا قد قرر المؤتمر أن مسألة ترعة السويس تتعلق بمصالح أوربا بأجمعها فمجموع المسألة المصرية إذن لن يترك زيادة عما سلف لدولة الانكليز تحكم فيه كما تشاء .

وقالت لقد أثرت الشروط التى صرح بها اللورد دفرن لمؤتمر الأستانة المتعلقة بتداخل الدولة العثمانية فى مصر تأثيرا شديدا عند الوزارات الأوربية وقد أبت تلك الوزارات أن تقبل ما اشتملت عليه هذه التصريحات فإنها لا تعترف بما احتجت عليه وزارة انكلترا من أنها لم تكن إلا مضطرة فى إطلاقها المدافع على الاسكندرية فإن عمل

(١) كذا فى النص وصحتها ولكنه .

أجرته بانفرادها حال كون ذلك كان محظورا عليها مساواة للدول الأخر مدة انعقاد المؤتمر أما ترعة السويس فلم يهدد المرور فيها بما يمنع منه . وقد زادت شهادة الموسيو دى لسبس على ذلك وزراء أوربا تثبتا فيما كانو به موقنين وقد ندد اللورد دفرن نيابة عن حكومته على الباب العالى في المهلة التى تأخر فيها عن قبول لائحة المؤتمر وليس له وجه فى هذا التنديد فإن المؤتمر عقد جلسته الأولى فى ٢٣ يونيه ومكث ثلاثة أسابيع يتداول فى اللائحة التي يقدمها للباب العالى وبعد أن وقع عليها قدمها له فى ١٥ يوليو ثم بعد مضى أربعة أيام أى فى ١٩ يوليو أظهر الباب العالى أنه يريد الاشتراك فى أعمال المؤتمر فليس بين هذا البلاغ الأخير وقبول الباب العالى سوى عشرة أيام فقط وحيث أن المؤتمر لم يحدد للباب العالى مهلة فليس للوزارة الإنكليزية أن تعده مهملا وتريد بذلك توقيف مشروعه فى الزمن الذى وافق فيه على ما رغبه المؤتمر .

فبهذه الأسباب كلها يمكن اعتبار هذه الأفكار غير موافقة كل الموافقة لسياسة الوزارة الغلادستونية وهى سياسة ربما جرت وراءها مشاكل معضلة . آ . هـ .

وقد أعلنت الحكومة الإنكليزية فى ذلك الوقت للعلماء فى الهند أنها تقتفى أثر من يبث دسائس يكون الغرض منها إحداث تحزب بين مسلمى الهند .

ونشرت النوفيل ريفو إحدى الجرائد السياسية فى فرنسا فصلا مطولا قالت فيه ما ترجمته أن الدولة الإنكليزية لا تعمل إلا لمصالحها الخصوصية ولا ينبغى لنا أن نسعى لها فيها ثم إن فرنسا قد عرفت حق المعرفة أن الحركة الوطنية المصرية ليست من الأمور المختلقة وأن الأمة المصرية قد استيقظت من نومها وما أيقظها إلا بغضها للمراقبين وتذمرها من تسلط الأجانب وإن الجمهورية الفرنساوية ترى حطة فى قدرها أن تشترك فى إطفاء نور هذه النشأة الحديثة ، ومن أقوال الغازت ناسيونال الألمانية ، إن سياسة الدولتين الغربيتين (انكلترا وفرنسا) ، المبنية على العدوان وحب الذات فى وادى النيل هى المسببة لحالة مصر إذ ذاك ، ولكن ربما عثرت أوربا على طريقة موافقة يتيسر لها أن ترضى بها مقتضيات التمدن ومطالب الأمة المصرية . آ . هـ .

ومن قولها أن الأميرال سيمور الذى رمى مدينة الاسكندرية بنار المدافع إنما هو نائب عن الأسباب السياسية القديمة ونخاف أن يعجز المستر غلادستون نائب السياسة

الجديدة عن إيقاف حركة الأعمال الوحشية الحاضرة عند إطلاق أول قنبلة وصيرورة أركان الحرب والمجلس البحرى جميعا قضاة يتفاوضون فيما يتعلق بالشرف الوطنى الإنكليزى فيلزم أن نتوقع منهم هفوات غير محصورة ، وبعد هدم حصون الاسكندرية لابد من التوغل فى البلاد .

وبما أن الحزب الوطنى لم يتلاشى حتى الآن فتسعى نظارة خارجية لندورة[١] في إرسال جيش إلى القاهرة وهذا عدم تبصر ومجلبة للمصائب وفى الحقيقة أن انكلترا استخفت بالمصريين أولا وبالإسلام ثانيا وبسمرك[٢] ثالثا . وفى كل حال فليس لفرنسا أن تشترك مع مجلس الحربيين الذين يظنون أن المسألة تنته بإطلاق القنابل على مدينة الاسكندرية .

والسياسة الجلية التي صرح بها الموسيو دى رنج[٣] وكيلنا السياسى السابق فى مصر لم تزل باقية على ما كانت عليه فى أفكاره وهى سياسة من طبعها أن تحمى رجالها ولا تحرك الخواطر ومن شأنها وقاية قواعد التمدن المهددة والمدافعة عن حقوق الإنسانية وذلك بايقافها على قدر الإمكان إراقة الدماء فنحن نسأل الآن لم بدلت بغيرها مما هو أعظم منها فى الفخر كما يزعم عباد السياسة السالفة ولكنها على ما تراه مغايرة لأمانينا ومصالحنا وشرفنا وإن رايتنا لا تزداد فخرا بإعدام أمة قامت مطالبة بحريتها كما أننا نعد سفر الأسطول الفرنسى إلى بورسعيد (حين إطلاق الإنكليز مدافعهم على الاسكندرية) حسن تبصر وشهامة فإن الأعمال غير المفيدة هى دائما ممنوعة ولو أعنًا سيمور على أعماله لكنا لابد أن نؤدى غرامة عن طيشنا .

ومن منشورات النوفيل ريفو السابقة الذكر قولها فى أول أغسطس سنة ١٨٨٢

مازالت السياستان الفرنسوية والإنكليزية مترافقتين فى مصر غير متشابهتين فيها والاتحاد وإن كان باقيا إلا أنه لاينبغى أن ننسب إلى أنفسنا أدنى فى تبعه عن الأعمال

---

(١) تعنى لندن .

(٢) المستشار الألمانى .

(٣) هو البارون دى رنج De Ring قنصل فرنسا العام بالقاهرة منذ أواخر ١٨٧٩ والذى قام بشرح حقيقة الموقف فى مصر لوزارة الخارجية الفرنسية . انظر أحمد عبدالرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ص ١٣٧ .

الحربية التي صمم على إجراءها وهى ناتجة عن إطلاق المدافع على الاسكندرية ، فإننا نحافظ على مقامنا السليم من كل لوم ولا نعبث بالمعاهدات بل نصون العهود الدولية ونحترم أصول الأمم ونؤيدها فى مظاهرها المفيدة . وحرية ترعة السويس هى علم يلزمنا المدافعة عنه لا لكون الترعة صنعا فونسويا ومن أموالنا بل لاجل المنافع العمومية التى تترتب على وقايته ثم يجب علينا أن نصرخ بأن وجود سفننا فى الترعة هو أقوى لسلامتها من جميع تهديدات انكلترا وقنابل شركة «ارمسترونج» ولسنا ممن يغتر بالأقوال لعلمنا حق العلم بمعنى النفوذ الفرنسوى فى مصر فإن ثقة المصريين بشرفنا وصداقتنا فى درجة يتيسر لنا بها إيقاف أو منع وقوع ما تأمرهم بفعله ثورتهم الغضبة أما شره وكلاء انكلترا واشمئزاز العالم مما يجرونه من أنواع العذاب فهما يهيجان التعصب بدلا من تسكينه .

وقالت أن الإنكليز لما يئسوا من الوصول إلي أغراضهم بالوسائل السلمية المعتادة استعملوا الشدة والعنت وعقدوا نيتهم على إعادة الراحة والنظام بواسطة الإحراق والتدمير ولو استعدنا حافظتنا لرأينا أمامنا الخطاب الذي ألقاه حديثا رئيس وزراء الإنكليز واعترف فيه بأن إرسال السفن الحربية من شأنه أن يحدث الخطر لا أن يزيله إلا أن النيات والأفكار تبدلت بغيرها من ذلك الحين ، وحيث أن القوة الوحشية قد قطعت سلاسلها فلا قل من أن نلقى التبعة عن اعناقنا وإن صح ما يقال من أن الأعمال الحميدة أحق بالاتباع من النصائح فأعمالنا الحسنة كانت جديرة بأن يقتدى بها جيراننا الإنكليز على شدة التعدى الذى طالما اجتهدوا فى إخفاء أسبابه الحقيقية ولم يكن فى الإمكان أن نوضح للإنكليز أكثر مما أوضحنا من أنهم انفردوا بالعمل وأنهم خاطروا بشرفهم المعنونة به كل دولة متمدنة إلا إذا سلكنا فى توضيحنا طريق الغيظ والحنق ولكن تصميم حكومة الإنكليز على إجراء هذه الأعمال كان شديدا بمقدار ما كانت تتوقاها وتحاذر من فعلها حسب عادتها وأصولها فمن يوم أن تحصل تجار الأقطان بطلباتهم على قرار الوزارة الحرة علم أن الإنكليز فى لوندرة ضربت على أبصارهم غشاوة وصمت آذانهم ولا راد لهذا القرار خصوصا وأنه صدر من حكومة ذات مشرب وأفكار مضادة للأعمال المكدرة المدونة فى ذلك القرار وقد يحصل غالبا أن يكون السلميون فى الحرب أقسى من الحربين أنفسهم فإن أعمالهم تكون محبوكة بأطراف العجلة والسرعة بالنظر إلي عدم تعودهم وعدم أهليتهم وذلك يظهر حتى فى عنادهم عندما ينادون بالاسراع فى أخذ الثأر ليتم لهم الأمر .

ومن الجلى أن سيمور كان عازما على إطلاق المدافع قبل وقوع أى حادثة رغما عما أبانته انكلترا من أن اعماله مسببة عن المذابح والنهب الذى حصل قبل انتشاب الحرب ثم إن التعاظم الذى لزمه فى مخاطبة حكومة الاسكندرية وعناده فى ادعائه أنه مازال يشاهد أعمالا تحصينية مصوبة نحو سفنه وتظاهره بالرعب من مدافع الحصون حالة كونها لا تستحق أن يلتفت إليها كل هذه الأعمال تبيح لنا أن نقول أنه كان مصمما على المجاهرة بالعدوان مهما كانت الحوادث وأن انكلترا لما لم تجد لذلك سببا حقيقيا اجتهدت فى إيجاد سبب طفيف تتخذه حجة لإلقاء الرعب فى قلوب المسلمين ويحتمل أن القصد من قذف القنابل التي كانت تمر من فوق الحصون لتصيب حارات الافرنج مبنى على تخويف الممالك الهندية أى اتباع الإنكليز الذين يرتاب إلى الآن فى صحة تابعيتهم وعلى هذا التفسير المبنى على حب الذات كانت مدينة الاسكندرية المحتوية على مائتى ألف نسمة والتى هى من أحسن الثغور التجارية الموجودة فى البحر المتوسط خارجة عن نظر الإنكليز بل كان القصد الوحيد إجراء تظاهر شديد تظل أخباره إلي أطراف بومباى بلا مبالاة بالأوربيين وتدمير أملاكهم وتنغيص عيشهم إذا أن انكلترا قدمت كل ذلك ضحيته لإزالة انشغال بالها على الهند لو لم تكن المسألة مسألة محزنة لضحكنا من مقابلة إطلاق المدافع على الاسكندرية بالأسباب الرسمية الحاملة على هذا العمل الحربى فقد أرادت نظارة خارجية لوندرة أن تظهر قوتها فى إيقاف المذابح والنهب إلا أن الطرق التي اتخذتها لتنفيذ مقاصدها جاءت مخالفة له لأن الخسارة التى نجمت عنه تبلغ قيمتها ٣٠٠ مليون فرنك وهذا فضلا عن أن الأوربيين الذين لم يذبحوا أسرعوا بالفرار إلى البحر .

ومن قولها : وقد كان الأليق بشرف المستر غلادستون أن يعترف بأن تعدى المراقبين المالى والإدارى أوصل الفلاح إى درجة التمييز وأن التعليمات الأوربية كونت من المجموع المصرى شعبا صار أمة وأننا نسلم بما أحدثته حالة الترعة للإنكليز من القلق حيث أن الترعة عرق تتغذى منه المملكة الهندية ولايمكن مسها بشىء إلا وتهيج اتكلترا لأجله ولكن من الخطأ أن يجمع ما بين المسألة المصرية وبين مسألة ترعة السويس . ومن أفكار الأغنياء الأجانب أنه لا تتيسر وقاية الترعة ما لم يظلم وادى النيل وهى أفكار قوم تحصلوا بغناهم على منزلة الحاكم الأمر الناهى وأثروا من تجارة السلب

ثروة عظيمة ، ثم ربطوا المسألتين بحيلة ليس لها مثيل ، ولو ميز المستر غلاوستون بين هذه الأمور المشتبكة عمدا فخدم مذهبه خدمة كبيرة وزاد فى منافع مواطنيه .

وليس بخاف أن المستر غلادستون ما سلم نفسه للمخاطر إلا لما توهمه من رجوع مصر إلى أيدى الدولة العثمانية فبدلا مما اتخذه من الوسائل التي كانت نتيجتها شد عروة الوثاق بين مصر والسلطان وبدلا من الادعاء بالانتصار لحريتها كان من السياسة الحسنة أن يسعى فى إنماء غروس التقدم اليانعة التى نبتت منذ خمس سنين فى مصر ولا نقدر أن نقوم بحق التأسف على التغيرات الخفية التى بدلت تبديلا سريعا منظر تلك البلاد وحولتها إلي ديار خربة وأملاك معدومة وترع مدمرة والكراهة التي كادت أن تكون جنونا كانت جديرة بأن تبعث الذين عجلوا بالحرب على الاعتراف بالذنب الذي اقترفوه ولكن من شؤون سياسة التدمير أن لا توقف أعمالها عند حد الندم والاستغفار وبعد وقوع الخطأ لايزداد الإنكليز إلا تمسكا بقرارهم فتسير عليه أحكام القانون الذى سنوه ألا وهو أن نبتدئ أعمالهم بإطلاق المدافع وتنتهى بإعدام أمة ساعية فى وطنيتها .

أما من جهتنا فنحن أول من كان يسعى فى إزالة ما تعتقده أمتنا فى الإنكليز من منذ حرب نابليون الأول ولكنا نشترط قبل كل شىء أن تفوز أفكار غلادستون الحرة وأفكار أصحابه بالنجاح .

أما وقد نبذت الآن هذه الأفكار والمقاصد ظهريا فانا نستمر على عدم ثقتنا بالإنكليز فإنهم سينفردون فى محاربة جيش عرابى باشا وأنا نحاذر من أن نتغالى فى مدح رئيس القوات المصرية ولكنا نقول أن ما يجذب ميلنا اليه هى النشأة التى هو نائب عنها ونرى وراءه أو بجانبه قوة الأمة التى قد أقسم الإنكليز بإضعافها ولذلك لا نصحبها بدعواتنا ولا بتهنئاتنا بل نقول أنه بالرغم عن قوة انكلترا المالية وموقعها البحرى نرى أعمال محفوفة بالخطر العظيم[١] .

وسافر المسيو دى لسبس إلى باريس فأعد له أصحاب الجرائد الخطيرة وليمة فأبى إجابة الدعوة اليها وقال أن البعض اتخذونى عدوا لإنكلترا وصديقا لعرابى باشا مع أننى لم أتصرف إلا تصرف محافظ على الترعة وأمنها ، أما عرابى باشا الذي وصفوه بالهمجية فلا أقول فى شأنه إلا أنه احترم حيادة الترعة .

---

(١) نقل عرابى عن سليم النقاش أقوال هذه الجرائد جميعها وإن كان قد اختصر القليل منها ، انظر جـ ٥ ص ١٥٧ - ١٨٣ .

هذا أهم ما رأينا وجوبا لاثباته فى فصل مخصوص من أقول الجرائد الأوربية على اختلافها صيغة فمن مجملها يتضح للمطلع عليها أن الأميال العمومية كانت فى ألمانيا والروسية وفرنسا وإيتالية منحازة بحق إلى المصريين[١] ولاكن[٢] لا ينتظر منها مساعدة فعليه لنا على إخراج الإنكليز من البلاد المصرية ، فضلا عن أن فى اعتراف السلطان بعصياننا وفى ارتضائه بتداخل الإنكليز فى مصر تثبيطا لهمم المصريين وتعضيدا للإنجليز ومساعدة لهم علينا ، ولنعد الآن إلى ذكر الملاحم الحربية .

(١) ربما كان ذلك من العوامل الذى زادت العرابيين إصرارا على مواجهة الإنكليز أملا فى مساعدة الدول الأوروبية لهم .

(٢) كذا فى النص وصحتها ولكن .

الفصل التاسع
فى ذكر الوقايع الحربية التى حدثت فى الخط الشرقى

ولنعد الآن إلى ذكر الملاحم الحربية

وفى ١٩ أغسطس ورد تلغراف من محافظ السويس بأن الإنكليز أطلقوا مدافعهم على المدينة ولما لم يجاوبهم أحد خرجوا إلى البر واحتلوا المدينة[١] وفعلوا مثل ذلك فى مدينة الإسماعيلية فى ليلة ٢٠ منه .

وفى٢١ أغسطس توجه الفريق راشد باشا حسنى[٢] إلى الخط الشرقى ومعه فرقه من البيادة والطوبجية والسوارى تحت إمرة خالد باشا نديم ومحمد عبيد الميرالاى وعبدالقادر بك عبدالصمد الميرالاى ثم صار وضع أورطة فى محطة فايد وأخرى فى نفيشة وجعلوا المركز العمومى فى المسخوطة وتوجه إليهم محمود باشا فهمى رئيس أركان الحرب وأخذوا فى إنشاء استحكامات خفيفة فى المسخوطة بواسطة الأهالى المتطوعين وسد الترعة الحلوة .

فصل فى واقعة المحسمة

وفى ٩ شوال سنة ١٢٩٩ و٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٢ اشتبك القتال مع الإنكليز بين المسخوطة والإسماعيلية فاقتتل الفريقان قتالا شديدا اشتركت فيه العربان حتى أخرجوا الإنكليز من مراكزهم التى تحصنوا فيها عند محطة المحسمة بعد أن كبدت الإنكليز خسارة عظيمة .

وفى ١٠ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ ورد تلغراف من رئيس أركان حرب الجيش الشرقى بالمحسمة لوكيل الجهادية بمصر وهاك نصه :

نهنئ سعادتكم بما حصل من الظفر فى هذا اليوم على العدو فى ميدان الحرب الكائن بين المسخوطة وبين الإسماعيلية وأن جهة المسخوطة فى حذاء الاستحكامات

---

(١) اخترق الإنجليز قناة السويس غير مبالين بشىء ، ولا حاسبين لقانون .

(٢) المعروف باسم «أبو شنب فضة» وهو أحمد راشد حسنى (١٨٣٤ - ١٩٠٥) وقد جاء من القوقاز إلى مصر عام ١٨٤٩ والتحق بالسلك العسكرى وفى عام ١٨٦٧ أصبح فريقا بالجيش ، وقائدا للحرس الخديوى ، وفى عام ١٨٧٦ أصبح ياورا للخديوى إسماعيل ، ولما تولى توفيق الحكم عينه مستشارا عسكريا خاصا له ، ولكنه انقلب عليه وانضم إلى العرابيين وحارب فى صفوفهم . شولش : المرجع السابق ص ٨٤ .

الجارى تشغيلها وسبب حركة العدو فى هذا اليوم هو بالنسبة لما أصابه من سد الترعة الحلوة وحجز المياه عن الإسماعيلية وبورت سعيد والسويس ورؤيته كثيرة أنفار العملية الموجودة فى إشغال الاستحكامات خرج يوم تاريخه صباحا من الإسماعيلية بأربع أورط بياده وأربع مدافع جبلية وكثير من السوارى ولم يكن موجودا فى خفر الاستحكامات إلا أربعة بلوكات بيادة وبلوكان سوارى ومدفعان جبليان وفى الحال توجه حضرة عبدالقادر بك بالأورطة من الاى على بك وحضرة محمود أفندى الرشيدى بأورطة سوارى وبعد أن قابلتهم بلوكان النفر والمدفعان والبلوكان الساورى أمدتهم العساكر وانتشرت العربان واستمرت الحرب من الصباح لحد ساعة تاريخه حتى تزلزلت أقدامه ورجع إلى الخلف إلى أن وصل تلول الإسماعيلية واقتفت أثره عساكرنا المنصورة ولم يزل سعادة راشد باشا حسنى وسعادة خالد باشا نديم وعبدالقادر بك ومحمد بك عبيد فى ميدان المحاربة وهاهم على قدم الحضور وسنعرض ما حصل للعدو من الخسائر فبشروا سعادتكم سعادة ناظر الجهادية والبحرية والمراكز العسكرية وجهات اللزوم بهذا الخبر السار أيدنا الله بفضله وكرمه أنه على نصرنا قدير وبالإجابة جدير .

ولم تزل عساكرنا المنصورة تقتفى أثر العدو حتى بددت شمله وهزمته شر هزيمة ثم عادت الساعة ١,٣٠ ليلا وألوية النصر تخفق على رؤوسه ، وعندما بلغ حامى حمى الديار المصرية ما أيدنا الله به من النصر المبين أرسل تلغرافا يهنئ به سعادة الشهم الهمام راشد باشا حسنى قومندان الجيش الشرقى وهذه صورته صورة تلغراف ورد من سعادة ناظر الجهادية والبحرية بكفر الدوار إلى سعادة راشد باشا حسنى قومندان الخط الشرقى بتاريخ ليلة ١٠ شوال سنة ٩٩ الساعة ٤ والدقيقة ٣٠ عربى .

أهنىء سعادتكم والأمة المصرية كما أهنىء نفسى بما أيدكم الله به من النصر والفتك بالعدو الباغى فقد ملأتم القطر سرورا بثباتكم العظيم وحليتم صحف التاريخ بأعمالكم الحربية وليس بعجيب أن أراكم سائرين تحت ألوية النصر فى كل واقعة تبارزون فيها الإنكليز أعداء الدين وأعداء الإنسانية بعد علمى بأنكم المدبرون المحنكون وتحت إدارتكم أسود لا يعبأون بجيش العدو وإن كثر لما وعدهم الله به من النصر المبين وما غرس فى قلوبهم من حب أوطانهم والدفاع عنها والحرب وإن استمر ١٣ ساعة فإنها ما كانت إلا ملعب فرسان تكتب فيه يد الفخر شرف المصريين بدم الإنكليز لتكون أية يتلوها كل من مرّ فى ذلك الميدان على تعاقب الدهور فاقبلوا الشكر الجليل والثناء

الجميل من مخلص اسكنكم فى فؤاده فلا يتحرك حركة إلا وأنتم فى وجهتها كباقى الأمراء والعساكر المصرية والعربان ، وبلغوا عنا سعادة محمود باشا فهمى وسعادة خالد باشا نديم وحضرات أمراء العسكرية والضباط والعساكر ومشايخ العربان مثل ما لسعادتكم من الثناء واجعلوا بين أعينكم قوله تعالى ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ والله خليفتى عليكم فإنه نعم المولى ونعم النصير . أ . هـ .

وفى ١٠ شوال سنة ١٢٩٩ و ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ أطلق الإنكليز مدافع سفنهم على عساكرنا فى المسخوطة قريبا من الإسماعيلية ثم هجم جيشه برا بقوة كبيرة وكان هناك ستة آلاف من المتطوعين يشتغلون فى الاستحكامات فلما نزلت عليهم مقذوفات العدو بقوة شديدة تشتتوا وتخللوا العساكر فعاقوهم عن الحركة وعلا صياحهم فلم تتمكن العساكر من الضرب لامتلاء الميدان بهم فلم يجدوا بدا من الرجعة فرارا من تمكن العدو منهم وتركوا مركز المسخوطة ورجعوا إلى التل الكبير(١) وأما محمود باشا فهمى رئيس أركان الحرب فإنه لم يرد أن يرجع مع العساكر وآثر الوقوع فى الأسر على البقاء فى الجيش لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصياننا وطمعا منه فى قبوله لدى الخديو بسبب استسلامه إلى الإنكليز(٢) ولذلك خالف خالد باشا وثبت فى موقفه مع خادمه حتي قبض الإنكليز عليه بصفة كونه نفرا بسيطا .

(واقعة القصاصين الأولى)

ولما بلغنا خبر هذه الواقعة قمنا من كفر الدوار إلى رأس الوادى وكذلك قام من مصر على باشا فهمى إلى رأس الوادى ومعه ألاى اجى بياده حكمدارية أحمد بك فرج وحضر من دمياط خضر بك إلى رأس الوادى ومعه أرطتان من عسكر السودانيين وجاء عيد بك محمد بالاية من كفر الدوار وأحمد بك عبدالغفار وعبدالرحمن بك بالايات السوارى إلى رأس الوادى وصار ترتيب الجيش ومواقع الاستحكامات ثم عقد مجلس حربى تحت

---

(١) استولى الإنجليز على المسخوطة بعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين العرابيين ، وكان يقود الجيش المصرى فيها الفريق راشد باشا حسنى وقد وقع محمود فهمى المهندس رئيس أركان حرب الجيش المصرى أسيرا فى يد الإنجليز .

(٢) الواقع أن وقوع محمود فهمى أسيرا فى يد الإنجليز كان أكبر ضربة أصابت الدفاع الوطنى ومع أن عرابى قد اتهم محمود فهمى بأنه سلم نفسه للإنجليز فإن الحقيقة كانت غير ذلك فقد بذل محمود فهمى غاية جهده فى الاختفاء عن أعين الإنكليز حيث أنكر شخصيته وادعى أنه من أصحاب الأملاك المجاورة . انظر : محافظ الثورة العرابية محفظة رقم ١٩ ملف ١٠٦ .

رياستنا وتقررت فيه هيئة الهجوم على العدو وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره واعطى لكل واحد منهم رسم الشكل الحربى مبينا فيه الدقيقة التي يلزم أن توجد الفرق فيها على خط النار أمام العدو حيث كان العدو معسكرا فى القصاصين وكان الترتيب على هيئة شكل مقعر يكتنف العدو من كل جهة فكانت أورطة محمد أفندى الرملاوى فى الجناح الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة من السوارى ومدفعين وجانب من العربان وفى هذا الجناح من يسار الترعة أجى الاى بيادة حكمدارية أحمد بك فرج وخلفه مدفعان وفى القلب ثلاث أورط يتقدمها ٨ مدافع من الكروب وخلفها أورطة من البيادة و٦ مدافع الجميع تحت حكمدارية على باشا فهمى والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت وفى الجناح اليسار ست أورط من ا لسوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار وأورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عيد بك وقومندان هذا الجيش راشد باشا حسنى .

وفى ليلة الاثنين الواقع ١٣ شوال الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ سهر على باشا فهمى والضباط فى تهيئة العساكر وتعيين النقط وإعطاء التعليمات إلى الحكمدارية ، وفي الصباح تقدم الجيش نحو العدو حتى وصل اليه واشتبك القتال بالمدافع أولا ثم بالبنادق وثبت العدو ثبات الأبطال ثم امتد القتال إلى الليل والتحم سوارينا مع سوارى العدو التحاما هائلا ثم تراجع الفريقان وقد أسر أحمد بك عبدالغفار قرنه الذى كان يقاتله وهو برتبة يوزباشى تليانى الأصل وقد نشر ذلك مفصلا فى جريدة الطائف بقلم السيد عبدالله أفندى نديم الذى كان مشاهد لهذه الواقعة إذ قال ما نصه :

جعلت الحرب سجالا بين المتحاربين فاحتاطت مراكب الإنكليز بعساكرنا فى المسخوطة أمام الإسماعيلية يوم الجمعة ١٠ شوال بعد أن أذاقهم عساكرنا كأس المنون فى يوم الخميس وكان فى وسط عساكرنا ٦ آلاف يشتغلون فى الاستحكامات فلما نزلت عليهم مقذوفات العدو تشتتوا وتخللوا العساكر فعاقوهم عن الحركة وعلا صياحهم فى وجوه العساكر فلم تتمكن العساكر من الضرب لامتلاء الميدان بهم حتى فاجأهم العدو برجاله فلم يجدوا بدا من الرجعة فرارا من تمكنه منهم فصاروا يضربون ويرجعون حتى تخلصوا من شرك العدو وعندما بلغ الخبر عرابى باشا أقسم لأذيقنهم عذاب الهون[1]

(١) ذكر الرافعى أن عرابى صار ينادى ويقول «أنا لها أنا لها» . الثورة العرابية ص ٤٢٤ .

مستعينا بحول الله وقوته وقام من كفر الدوار إلى رأس الوادى وحضر من مصر على باشا فهمى وبعد وصولهما إلى معسكر رأس الوادى أتما ترتيب الجيش ومواقع الاستحكام فى ٢٤ ساعة وفى الصباح حضر من كفر الدوار أحمد بك عبدالغفار ثم عقد مجلس حربى برئاسة عرابى باشا وتقررت فى هيئة الهجوم على العدو[١] وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره ثم فى ليلة الاثنين سهر على باشا فهمى فى تهيئة العساكر وتعيين النقط وإعطاء التعليمات إلى الضباط ، وفى الصباح وقفت العساكر على هذا الترتيب فى الجناح الأيمن بعد الترعة الحلوة أورطة من البيادة وأرطة من السوارى وجانب من العرب[٢] وفى هذا الجناح من يسار الترعة ٣ أورطة من البيادة خلفها مدفعان وأرطة إمداد وهذا الجناح تحت حكمدارية أحمد بك فرج وفى القلب ٨ مدافع من الكروب خلفها ٣ أورط من البيادة ثم ٦ مدافع إمداد وهذا القلب تحت حكمدارية على باشا فهمى . والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت ، وفى الجناح اليسار ست أورط من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار يصحبهما أورطتان من البيادة ومدفعان نحن حكمدارية عيد بك ثم تقدمت أورطة أخرى من السوارى وسارت إلى جهة العدو تكشف حاله وتناوشه وفى الساعة ٢ من يوم ١٣ شوال ابتدأت مدافع مقدمتنا تضرب مقدمة العدو وسار هذا الجيش تحت قومندانية راشد باشا حسنى وقد شغلت بيادة الميمنة نحو ستمائة متر وشغل القلب نحو ثلثمائة متر وشغلت الميسرة نحو ألف متر وقد أقام حامى حمى مصر فى الحذاء الثانى يلاحظ الحركة وينجز المطلوبات ويوالى الامداد من العساكر والجبة خانات والمياه وصحب هذا الجيش العظيم خادم المصريين (نديم)[٣] .

فسرنا فى الفضاء المتسع ومقدمتنا من السوارى والطوبجية تضرب مقدمات العدو وتزحزحها من مراكزها حتى قطعنا ستة آلاف متر ووقفنا برهة فيها سقيت الخيل واستراحت العساكر ثم قمنا قاصدين جهة العدو ونيراننا تطرده بمقذوفاتها حتى قطعنا خمسة آلاف متر وبقى بيننا وبين معسكره أربعة آلاف وخمسمائة متر هنالك وضعت مدافعنا القبلية على شكل نصف دائرة محيطة بمعسكر العدو وامتدت سوارينا فى هيئة

---

(١) استعد الجيش المصرى لاتخاذ خطة الهجوم وكانت قوات الإنجليز موزعة كالآتى : الجنرال جراهام فى القصاصين ، الجنرال دروری لو قائد الفرسان فى المحمسة ، الجنرال ديليسبس فى المسخوطة .

(٢) يقصد العربان .

(٣) يقصد عبدالله النديم خطيب الثورة .

شر جحيم حتي شغلت ألفى متر واستعنا بالله وكبرنا وحمد لنا وابتدأت مدافعنا بتحية القدوم بصوت عالى ودخلت قنابلنا تعتنق الإنكليز عناق مشوق ولهان . فجاوبتها مدافعهم بشدة وما هى إلا نقرة طائر حتى احتدمت النيران وأطلقت طوبجيتنا نوبة (اثنين) متتالية ومدافع العدو أمامها تضرب فى نقط متفرقة يجمعها محيط دائرتنا ، إذ ذاك ارتج الجبل وزلزلت الأرض وغابت الشمس واستحال حصر القنابل التى يمطرها الجو فى ساحة بساطها الإنسان ، ثم تقدمت بيادتنا تحت حماية مدافعنا فسمعت الحرب تناديها .

بنى العرب هيا لا يعيش جبان فجسمى وروحى همة وجنان
انا النار تذكوا غير ان لهيبها به العرض فى وسط الوجود مصان
انا الشؤم لكن فى ظلام وجنتى شموس عليها للسعود ضمان

وقد أطال فى النظم من مثل هذا القول وانتهى به إلى أن قال :

فما أتمت أفواه المدافع قولها حتى ملئت رجالنا حماسة وعزما وأرسلت الرصاص الحار على عساكر الأمة الباردة وجاوبتها مشاة العدو ببنادقها وتصورت ساحة القتال بشكل مريع وكنت كلما مررت على أورطة أحمسها وأشجعها لا أسمع منها إلا صوت بنادقها ولا أرى إلا سرعة حركتها وكلما وصلت مدفعا أرى أيدى رجاله كالآت مكينة بخارية لاحد لسرعتها وكلما تحول العدو لنقطة تحولت عليه الرجال والمدافع ومع كونه كان فى ستائر حصينة فإن المدافع والقنابل أخرجته منها رغبة فى الفرار فقطعت عليه المدافع خط الوصول إلى المعسكر وحالة البنادق بينه وبين المتاريس فلم يجد بد ا من الثبات فثبت ولكن بقدر ما عدم نصف رجاله ووقف ولكن انتظارا للمنون وفى خلال انسياب نيران البيادة والطوبجية أخذت السوارى تدفع ميمنة العدو حفظا لخط رجعتنا ثم امتدت المدافعة زمنا تغيظ منه أحمد بك عبدالغفار فهجم عليه العدو وانقضت سوارينا انقضاض الكواثر واشتعلت النار فى سائر أنحاء الميدان وكنت أرى على باشا فهمى مترددا على الصفوف يلاحظ الضرب ويأمر بمناولة الجب خانة ويلاطف الجرحى ويقتحم النيران غير مبال بها حتى لقد مرت رصاصة من فوق أنفه ثم مرت بين ذقنى وياقة القميص إذ كانت راكبا بجواره ورأيت راشد باشا حسنى راكبا جواده فى نقطة حول العدو عليه مدافعه وهو ثابت لا يحرك رأسا ولا يلتفت لجهة بل هو مشغول بالنظارة ينظر بها

مرمى الرصاص والقنابل ثم يأمر بتحويل الضرب للجهة التي يرى العدو فيها أو يتطويل المسافة أو تقصيرها[١] .

ثم دخل الليل وقد غضبت عساكرنا وزمجرت زمجرة الأسود وتهورت مدافعنا تهورا أطلق فيه كل مدفع ٣٠٠ قنبلة ورمى فيه كل رجل من رجالنا ٥٠ دستة من الرصاص فلا تسل عن هيئة الجو وصورة الميدان إذ ذاك ولا تعجب إذا رأيت عساكرنا كأنهم العمد ثباتا والغزلان حركة والموت نيشانا وأعجب لوقوف الإنكليز ولو فى الحيرة والتنقل أمام هؤاء الأسود وعندما اشتد الظلام وطال القتال هجمت سوارينا على سوارى العدو هجوما أوجب الالتحام .

وهو مقال طويل يكتفى منه بهذا القدر .

ولما بلغ الخديو هول هذه الواقعة أرسل وفد إلى الإسماعيلية مؤلفا من محمد سلطان باشا وعمر لطفى وفريد باشا وذكى بك ابن أخت يعقوب سامى باشا وعثمان بك رأفت ومعهم مقادير عظيمة من نسخ الجوائب[٢] المندرج فيها منشور السلطان بعصياننا ومنشور الخديوى القاضى بمساعدة الانجليز وأنهم لا مطمع لهم فى بلادنا وقد انضموا إلى زاهرب بك المعين مع الجيش الإنكليزى من قبل ليبثوا العيون والجواسيس على جيشنا وليتخابروا مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت عقائدهم وضعفت عزائمهم ويوزعوا عليهم تلك المنشورات وقد كلف بعض رجال الوفد المذكور بالتنقل فى البلاد الريفية ليدعوا العمد والأعيان لطاعة الإنكليز ومساعدتهم اتباعا للمنشور الخديوى وقد انخدع وانضم إليهم فى هذه الخيانة السيد أفندى الفقى من مديرية المنوفية وأحمد أفندى عبدالغفار عمدة تلا وغيرهم من المصريين الذين خفقت قلوبهم من منشور السلطان المدرج بالجوائب المشار إليها .

(١) هذه الموضوعات نقلها عرابى من سليم النقاش جـ ٥ ، انظر صفحات ٢١٩ ـ ٢٢١ .

(٢)جريدة كانت تصدر فى الآستانة باللغة العربية ، وصاحبها هو أحمد فارس الشدياق اللبنانى الأصل . وبعد وفاته اختار ابنه بعض مقالاته بالجوائب ووضعها فى سبعة مجلدات تحت عنوان «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» .

للتفاصيل انظر خير الدين الزركلى : الاعلام جـ ١ ص١٨٤ .

الفصل العاشر
(فى إعلان السلطان لعصياننا)
(أو منشور سعيد باشا الصدر الأعظم[1])

صدر منشور سعيد باشا الصدر الأعظم بعصياننا وقدمه الباب العالى لمؤتمر الآستانة إجابة لطلب اللورد دفرين سفير انكلترا لدى الدولة العثمانية وهذا تعريبه .

أولا : أن الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا .

ثانيا : أن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لإرادة الدولة العلية ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه ونال أيضًا من الحضرة السلطانية العفو العام .

ثالثا : أن الشرف الذى ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية أنما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم .

رابعا : قد تحقق الآن رسميا أن عرابى باشا رجع إلى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر المصرية بدون حق فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لاسيما أنه تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية .

خامسا : بناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا علي طاعة الدولة العلية السلطانية .

سادسًا : تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر إلى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة .

سابعًا : يتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الأوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة .

---

(١) استطاعت انجلترا بهذا المنشور تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل وسياسيا أيضًا ، فبعد أن كانت الحماسة الشعبية فى العالم الإسلامى متدفقة ضد الإنجليز ، وبعد أن كان هناك تأييد شبه مطلق لعرابى بدأ التذمر يظهر ضده بحجة أنه مخالف لأوامر السلطان .

ثامنًا : ان معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرات السادات الأشراف هى مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية»

أن هذا المنشور مغاير لأحكام الشريعة الإسلامية الغراء .

ومغاير لرضاء السلطان الأعظم والسادة الأشراف .

يتبرؤون مما نسب إليهم بصفته مغايرا للحقيقة .

وأنما هو ارضاءً للإنكليز فقط(١) .

(١) يذكر سليم النقاش أن عرابى بلغ به الغيظ مبلغا عظيما بعد أن بلغه أمر المنشور وزال ما كان يعتقده من ميل السلطان العثمانى إليه ورضاه عنه ، فاستدعى فى الحال بعض خواصه واستشارهم فيما يجب أن يفعله فى مثل تلك الحال .

انظر مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٤٨ .

الفصل الحادى عشر

الميثاق الحربى

بين انكلترا والدولة العلية[1]

وكان قد تقدم صدور هذا المنشور أن طرح اللورد دفرين سفير انكلترا إذ ذاك فى الأستانة ـ لائحة إلى الباب العالى يلح عليه فيها بإعلان عصيان عرابى باشا واعتباره عاصيا مع ذويه وإلا منعت انكلترا العساكر العثمانية التي كان تقرر إرسالها من النزول إلى البر فطلب الباب العالى على أثر ذلك إلى المؤتمر الاعتقاد بنيته المنصرفة إلى المنادات بعرابى باشا عاصيا ولكن بعد نزول الجيش العثمانى إلى البر فى مصر .

ثم جاء تلغراف من الآستانة ينبئ أن درويش باشا سيسافر إلى مصر بخمسة آلاف من الجنود العثمانية (وكان قد استدعى إلى الآستانة بعد دخول الإنكليز إلى الاسكندرية .

وجاء تلغراف أن سعيد باشا الصدر الأعظم أخبر سفير انكلترا اللورد دفرين بعدم إرسال التجريدة العثمانية إلى مصر قبل التوافق مع انكلترا وأن الجنود العثمانية ستنطلق إلى جريد[2] لتسافر منها إلى مصر إذا اقتضت الحال وأنه وعد اللورد المذكور بإشهار عرابى باشا عاصيا متمردا على جلالة السلطان ، ثم علم أن الباب العالى لم يقبل الشروط التى اقترحتها انكلترا عليه لتكون أساسا للميثاق الحربى[3] فطلب اللورد دفرين منه أن يقبلها منها لتوقيف المخابرة فى شأن إبرام ذلك الميثاق ثم أوضح أن الحكومة الإنكليزية لا ترخص للجنود العثمانية فى الذهاب إلى مصر إلا على شريطة أن تكون بقيادة الجنرال ولسلى .

---

(١) نتيجة لجهود اللورد دفرين سفير انجلترا الأستانة أصدر السلطان منشورا بعصيان عرابى والتزام الدولة العثمانية بالمحافظة على الخديو . ملف ثابت باشا : محفظة ١٦٤ خطاب من ثابت باشا إلى رئيس ديوان الخديو .

(٢) يقصد كريت ، وكان الأمر قد استقر على إرسال عساكر ألبانية للمجىء إلى مصر . سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٠٢ .

(٣) حول مشروع الاتفاق الحربى بين انجلترا والدولة العثمانية بشأن إرسال قوات إلى مصر والمقترحات البريطانية الأصلية ، وأصل المقترحات التركية المضادة . انظر : أحمد عبدالرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية الملحق الثالث ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

وبعد صدور منشور الباب العالى بعصياننا امتنعت الحكومة الإنكليزية من الموافقة على الميثاق المذكور حيث كان عرض الإنكليز من منشور العصيان تهدئة خواطر مسلمى الهند ومنعهم من القيام لنصرة الإسلام[١] . وأخذت جريدة التيمس تحرض الإنكليز على الامتناع وزعمت أن قد فات وقت التداخل العثمانى فى مصر . ولما الحكومة الإنكليزية امتنعت عن الموافقة لجأ الباب العالى إلى وساطة الدول فأبت هذه أن تتداخل فى أمر الخلاف .

وكان فى جملة القضايا التي اقترحها اللورد دفرين على الباب العالى طلبه أن لا يكون مقر الجنود العثمانية إلا فى ثغور دمياط ورشيد وأبى قير . وأن لا يرخص لها فى النزول إلى الاسكندرية وبورسعيد والسويس فصعب ذلك على الباب العالى صاحب السيادة على مصر وعلم أنه لو قبل ذلك لعدت الجنود العثمانية خادمة للإنكليز ومعينة لهم على قتال أمة مسلمة طائعة متعلقة بأهداب محبة الدولة العلية قائمة بالدفاع عن الوطن العزيز ذابة عن شرف الدولة والإسلام . تلك الأمة المصرية التى قامت تدافع عن شرفها وتحمى زمارها وتجاهد فى سبيل الله بحق شرعى قامت تقاتل قوما اعتدوا عليها وأتوا إلي بلادها محاربين قوما مخالفين لنا فى الدين والجنس والوطن واللغة تلك الأمة التى قامت بما أوجب الله عليها من قتال الظالمين الطامعين فى الاستيلاء على البلاد الإسلامية ليستعبدوا أهلها ويمحوا دينها إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وهنا نثبت تعريب شروط الميثاق الإنكليزى العثمانى المذكور .

أولا : ينبغى أن تكون التجريدة العثمانية مؤلفة من ستة آلاف جندى وأن لا يضيف الباب العالى إليها عددا آخر إلا بمخابرة انكلترا والاتفاق معها على الزيادة .

ثانيا : يجب أن يكون حلول الجنود العثمانية فى رشيد أو دمياط أو أبى قير وأن يكون خروجهم إلى المواقع التى يدعون إليها من أحد هذه الثغور .

ثالثا : يكون جلاء الجيشان الإنكليزى والعثمانى عن وادى النيل فى زمن واحد .

رابعا : لا يقوم الجيشان بالأعمال الحربية إلا بعد اجتماع القائدين العمومين على ما يجب أن يكون موضع العمل .

(١) كانت الحماسة متدفقة والتأييد شبه مطلق لعرابى حتى من الجنود الأتراك أنفسهم .

خامسا : يجب أن ينضم إلى الجيش العثمانى ضباط من أركان حرب الإنكليز وإلى الجيش الإنكليزى ضابط من أركان حرب العثمانيين .

وقد اختلقت التيمس خبرا مقتضاه أن الإنكليز قبضوا على كتاب مرسل من الحضرة السلطانية إلى عرابى باشا وأنه لو نشر لكان له تأثير عظم وأن العلاقات لم تزل مستمرة بين عرابى باشا والآستانة بالرغم من مناورة جلالة السلطان بعصيان عرابى ومن معه . فترتب على ذلك تذرع انكلترا بتلك الشروط الصعبة إلى منع سفر الجنود العثمانية إلى مصر مخافة أن تشترك مع المصريين في مقاومة الإنكليز فيشتد البلاء ويكون إعلان جلالة السلطان لعصيان عرابى باشا ضربا من الإيهام توسلا إلى الفوز بالمقصود ثم أن اللورد دفرين لم يرضه ما جاء فى منشور جلالة السلطان قائلا أن المنادات بعصيان عرابى لم تكن فيه صريحة العبارة واضحة الإشادة كما جاء فى تاريخ (مصر للمصريين) صحيفة ٢٠ جزؤ رقم (٥) .

ولما نشر منشور السلطان بعصياننا ومن معنا بجرنال الجوائب إرضاء للإنكليز أرسل منه مئات الألوف إلى الهند والأوغان[١] والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الأقصى وجميع بلاد الإسلام بواسطة الإنكليز وتوزع منه نسخا كثيرة على ضباط الجيش المصرى فى جميع المراكز بواسطة أبو سلطان[٢] باشا ومن معه من المخدوعين بالإسماعيلية مع الإنكليز ومن حبا إليهم من عمد البلاد الجهلاء . تذمر بعض الأمراء العسكرية وقالوا أننا إذا عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الحاكمة وابنه إبراهيم باشا ومن مات مات عاصيا لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين فى قتال الدولة العلية فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لأحكام الدين الإسلامى[٣] لأننا إنما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الإسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا وأن سلطان المسلمين لايسمح بمثل هذا المنشور وإنما هو دسيسة إنكليزية تمكنوا من إنفاذها بواسطة الرشوة ، ولو فرض مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على

(١) يقصد الافغان .

(٢) يقصد محمد سلطان رئيس مجلس النواب والذى انضم إلى الخديو .

(٣) يذكر إسماعيل سرهنك أنه لما قرأ عرابى منشور الباب العالى بعصيانه وقع فى قلبه اليأس لأن حجته الكبرى كانت بدعوى أنه قائم بالمدافعة عن حقوق الدولة العلية فى مصر . سرهنك : حقائق الأخبار ص ٤٠٦ .

المسلمين خلعه لمخالفته لأحكام الدين . إلا أن تلك النصائح لم تأثر فى الذين يجهلون أحكام الدين[١] مثل أحمد بك عبدالغفار قومندان السوارى وعبدالرحمن بك حسن حكمدار ، ٢ جى آلاى سوارى وعلى بك يوسف ميرالاى ٣ جى بياده ولكنهم أظهروا قبول ما أوضحناه لهم وأسروا الغدر والخيانة والحساب على الله .

وذكر فى تقارير الإنكليز عن واقعة القصاصين ما يأتى .

وفى يوم الاثنين الواقع فى ٢٨ أغسطس هجم العرابيون على مراكز الإنكليز فى القصاصين بثمان فرقة من المشاة واثنى عشر مدفعا ابتغاء الاستيلاء على سدود الترعة التى كانت فى حوزة فرقة من الجيش الإنكليزى بأمرة الجنرال وكان العرابيون بعدد عظيم لم تقو عليه الفرقة الإنكليزية فوردت إليها نجدة من الحسمة ثم اشتد القتال واستمروا إلي أوائل الليل فتشتت شمل العرابيين وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الإنكليز أما خسارة الإنكليز فكانت قتيلا واحدا وستة جرحى من الضباط و١٩ قتيلا و٥٣ جريحا من الجند .

وهذا البيان مخالف للحقيقة ومخالف لتقرير الجنرال جراهم نفسه قومندان تلك الحركة حيث كتب الجنرال المذكور فى تقريره بعد انقضاء القتال ما ترجمته كما يأتى :

بينما كان جيشى مستقرا عند سد الترعة فى القصاصين إذ ظهر العدو فى الصباح كأنه يروم الكفاح ففى الظهر أطلق العصاة علينا نارا شديدة من مدافع العيار الأول فلم يلحق بنا أقل ضرر وفى الساعة الثالثة بعد الظهر أمرت رجالى بالرجوع إلى مراكزهم فعادت فرقة الخيالة إلى المحسمة وكان قد وفدت على إمدادا وانجادا وفى الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة المشاة من الأعداء وحاولت التغلب على ميمنة جيشى وأكراهه على الاستسلام فعند ذلك أمرت فرقة الخيالة وفرقة المشاة بالسير نحو المحسمة وفى الوقت ذاته أشرت إلي فرقة مشاة البحرية بالتقدم والسير على طول خط الترعة الجنوبى قصدا لوقوع بالأعداء عن جوانبهم فأتم الكولونيل (نيزون) هذه الحركات الحربية بتمام المهارة وكان رجاله يرمون العصاة بنار لا تحظى المرمى إلا فى ما ندر[٢] .

---

(١) كان لهذا المنشور أثره فى فقد الروح المعنوية للضباط والجنود ، ومع أن عرابى حاول أن يثبت لهم أنهم يقاتلون أعداء المسلمين فإنه لم يفلح فى ذلك كثيرا .

(٢) نقلا عن سليم النقاش جـ ٥ ، ص ٢١٨ .

وفى الساعة الخامسة أمرت الجنرال لاو بالحمل على ميسرة العدو بمن لدينا من الخيالة ففعل ، وفى السادسة والدقيقة ٤٥ أمرت الجيش بأن يزحف على مواقع العصاة زحفا عموميًا ثم وصلت الينا فرقة المشاة البحرية من المحسمة وتقدمت معنا مسافة فرسخين أو ثلاثة فلما رآنا العدو على هذا الانتظام واتخاذ أساليب التضييق عليه رجع إلى الوراء ، وفى الساعة الثامنة اتصل بى خبر فوز فرقة الخيالة وبعد ذلك بثلاثة أرباع الساعة عدت إلى معسكرى ناعم البال ، وكان رجالى تحت نيران العصاة فى ثبات تام وقد امتاز منهم مشاة الليوتنان بيكوت (ملازم) وهو ضابط ماهر شجاع أصيب مع الضابط ادوار بجرح بالغ وكان مدفعيو القبودان توشر يطلقون المدافع إطلاقا محكما ، وقد ظهر لى أن قوة الأعداء كانت مؤلفة فى هذه الواقعة من ألف خيال وثمانية آلاف من المشاة[١] .

هذا هو تقرير الجنرال قومدان عساكر الإنكليز فى واقعة القصاصين الأولى ولم يذكر فيه مقدار القتلى والجرحى خشية وقوع الرعب وتشويش الأفكار فى بلاد الإنكليز على عادة الإنكليز فى إخفاء الحقائق والتهويل بالمختلقات .

فى ٣٠ أغسطس ضبط كتاب من على باشا مبارك إلى الشيخ إبراهيم المجبار شيخ المطرية يأمره فيه بأن الإنكليز سيرسلون عساكرهم إلى بحيرة تنيس بواسطة صالات صغيرة وأنه يجتهد فى منع الصيادين من معارضة الإنكليز ويوعده بالتقرب والمكافأة أن فعل ويتوعده أن خالف . فلذلك أرسلنا محمد بك بليغ باشمهندس الخط الشرقى إلى البحيرة لينشأ عليها طابية من الجهة الغربية وكتبنا إلى قومندان دمياط بذلك وأمرنا محمد أفندى رحمى الصاغ بتأدية وظيفة الباشمهندس لاستقامته واستعداده .

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

الفصل الثانى عشر
فى حوادث متفرقة

وقد تخلل سير تلك الحوادث إلى ١٥ سبتمبر الأمور الآتية[1] :

وكتب على باشا الروبى قومندان خط مريوط يقول ما نصه :

صورة ما ورد من أحمد بك كامل
الذى كان تعين مأمور ترتيب المقدمة بجهة أم زعيب

الذى حصل فى صباح هذا اليوم هو أن مقدمة العدو نحو الثلاثين نفرا تقدمت للكشف أمام طوبجيتنا وضربت نارا بالسلاح وكان خلفها من عساكر العدو أورطتان سوارى على راس الملاحة فضربت عليها مدافعنا الأمامية ثلاث قلل[2] شتت شمل المقدمة وولت الفرار ثم ضربت مدافع العدو ثلاث كلات من مراكبهم فى البحر فلم تصل طوابينا ولا عساكرنا ثم جاوبتهم الطابية المنصورة بثلاث ضربات كروب هزمتهم وولوا الفرار والحمد لله لم يحصل لعساكرنا أدنى ضرر وكل أثبت حميته وغيرته على الوطن العزيز بالثبات والحزم خصوصا العربان الذين كانوا فى مقدمتنا وضربوا نارا على العدو وهم قبيلة المشارقة شياخة معوض أبو ذراع وعند إمكان الكشف نوضح حقيقة ما تلف منهم ورجاؤنا أنه لايرسل إعانة ولا جب خانه ولا يكون عندكم فكرة فإنه بعد انهزامهم وتشتتهم ما ظهر لهم أثر للآن ومدة المناوشة ساعة ونصف .

تقرير رسمى من وكيل الجهادية

قال : وقد استفدنا من الأخبار الواردة إلينا عن حرب يوم الاثنين (٢٨) أغسطس من مركز الجيش الشرقى أن عساكرنا غنموا من جيش العدو غنائم كثيرة من ضمنها سبعون رجلا انكليزيا وعدد وافر من الخيول الأفرنكية والثيران الهندية ولا يزالون يعثرون على الخيول والبقر الشاردة فى السهول فتأخذها عساكرنا إلى مركز جيشنا ومقادير كثيرة من الأسلحة وقد تركوا قتلاهم فى ميدان الحرب بعد أن ولوا منهزمين فالتزم عساكرنا بدفنهم حسب القانون العسكرى الغالب بدفن قتلى المغلوب فالذين دفنوهم إلى هذا اليوم

---

(١) حول هذه الأمور انظر سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٢٢ ، ولا ندرى لماذا لم يذكرها عرابى مع انه نقل ما قبلها وما بعدها من سليم النقاش .

(٢) يقصد كلل بمعنى طلقات .

ثمانمائة قتيل وجدوهم مجندلين بأسلحتهم وألبستهم وذخيرتهم وهم غير الذين سيعثر عليهم فيما بعد والذين أمكن للعدو حملهم إلى مراكزه أو إحراقهم فقد ورد الينا من علي باشا فهمى أنه رأي حريقا فى جبهة الكبرى فأرسل إلي تلك الجهة من يكتشف هذا الحريق فأخبر المرسلون بعد الاستكشاف أنه حريق قتلى الهنود من جيش الإنكليز .

وقد استشهد من عساكرنا فى هذه الواقعة ستون شهيدا وجرح خمس وثمانون وأرسلوا إلى القاهرة فوصلوا عصر يوم الثلاثاء وبوصولهم ذهبت إليهم بنفسى لأقتبس من بركاتهم وأسلم عليهم وأحييهم ، وبالتأمل فى جراحاتهم وجدت نحو ثلثه أرباع الجراح من السيوف والسنج (أى حراب البنادق) وقت الالتحام واستعمال السلاح الأبيض ورأيت نحو الستين منهم بجراح خفيفة يؤمل شفاؤها قريبا . والباقون لا خطر عليهم وإن احتاجت جروحهم إلى علاج أطول من علاج اخوانهم .

وعندما كنا نحييهم ونلاطفهم ونسألهم عن أحوالهم لنخفف عنهم بعض ما بهم من الآلام نطقوا بلسان واحد أننا نتمنى الشفاء فى هذا الآن ونرجع إلى مواقع القتال لننتقم من أعدائنا المعتدين ونبيض تاريخنا بأعمال تذكر عنا على مدى الأيام ثم ذهبت مرة ثانية لزيارتهم فى هذا اليوم «يوم الخميس » ولما رأيت من ناظر الاسبتالية نوعا من الاهمال فى وظيفته غيرناه فى الحال وأبدلناه بمن فيه الكفاءة والأهلية لأداء واجبات هذه الوظيفة ثم أوصينا موظفى الاستبالية بأن يميزوا المجاريح فى المعاملة والأطعمة والأشربة عن سائر المرضى وقد نبهنا بأن يحضر لهم جميع لوازم المآكل والمشارب من أصناف اللحوم والطيور والفواكه والشربات وما أشبه ذلك ونبهنا بأن يكون الخبز الذى يقدم اليهم من الخبز الجيد ممتازا عن الخبز المعتاد وكلما زرناهم مرة عدنا مسرورين .

وفى هذا اليوم (يوم الخميس) ورد لنا تلغراف من مركز الجيش الشرقى مفاده أن الكشافين من عربان الفوائد والرماح وعددهم ١٢ شخصا تقابلوا مع كشافى العدو وكانوا ١٥ خيالا بجهة الكبرى فحصلت بينهم مناوشة حربية نحو ساعة وفى أثناء المناوشة انضم إلى كشافى العدو خمسة وعشرون من الامداد ومع ذلك تمكن عرباننا من رد الأربعين على أعقابهم منهزمين حتى تركوا الكبرى وولوا هاربين تاركين موقعهم الأصلى وغنم كشافونا منهم خيمة وبعض مهمات حربية وحضروا إلى خط النار فرحين مستيشرين(١) .

(١) من الواضح أن هذا التقرير لا ينطبق على الواقع ، ولم يتفق مع قرائن الأحوال .

وفى ١٦ شوال ورد لنا تلغراف من على باشا فهمى بمركز الجيش بالتل الكبير قال فيه أن كشافى عربان الفوائد والرماح تقابلوا مع كشافى العدو فى جهة الكبرى فحصلت بينهم مناوشة حربية مدة ساعة فانهزم كشافو الإنكليز أمامهم حتى تركوا الكبرى وولوا هاربين إلى المحسمة وتركوا موقعهم الأصلى واغتنم كشافونا منهم خيمة وبعض مهمات حربية وحضروا لطرفنا بخط النار مثل السباع يتلألأ فى وجوههم النصر والسرور والمحل الذى حصلت فيه المحاربة يوم الاثنين الماضى صار خاليا من العدو حسب تعريفهم فنهنئ سعادتكم بالظفر ونشكر لعرباننا قبيلتى الفوائد والرماح ونسأله تعالى أن يؤيدنا بنصره المبين أنه على ما يشاء قدير .

وفى ١٧ شوال توجه خمسون خيالا من فرسان عربان قبائل الفوايد والرماح والحرابى والبراعصة تحت قيادة كل من المصرى السعدى من الفوايد وإبراهيم ديهوم ومهدى ديهوم إلى الاستكشاف بموقع محاربة يوم الاثنين الماضى فتقابلوا مع كشافى العدو فقهقروهم إلى أن أدخلوهم خيامهم بالمحسمة واغتنموا منهم بعض برانبط وصناديق مأكولات وجملة أسلحة من ميدان الحرب وبعض موازين وحضروا من الاستكشاف الساعة ثمانية عربى .

وفى ١٨ شوال ورد تلغراف من خوشيد باشا طاهر قمندان خط رشيد وأبو قير يقول فيه : ليلة تاريخه حضر وابور من وابورات العدو حاملة عساكر بيادة ووقف بين الرمل والمركب الحربى الواقف أمام المندرة وفى الساعة ثمانية من الليل أخرج العساكر إلى البر وابتدأوا بإطلاق النار على مقدمتنا الأمامية فقابلوهم عساكرنا بالضرب الشديد ومازال الضرب مستمرا حتى سطع نور النهار فتأخر العدو متقهقرا إلى جهة الرمل وابتداء الضرب من الوابور على خط المقدمة وبعد ما رمى جملة مقذوفات كبيرة بطل الضرب من الوابور وابتدأ الضرب بمدفعين فى فلوكه كبيرة مقطورة برفاص صغير واستمر الضرب بمقذوفتهما على الخط لغاية الساعة ٢ من النهار فمدة الحرب ٦ ساعات وقد أظهرت عساكرنا ثباتا عظيما وقاومت العدو أشد المقاومة حتى أنه لم يتمكن من الاقتراب من خطنا وبعد أن ألقى مقذوفات عديدة ووجدها لم تثمر فتأخر الوابور على بعد من الرمل وتقهقرت عساكره البياده أيضًا ولله الحمد لم تؤثر نيرانه فى عساكرنا بحيث لم يصب واحد منهم بسوء ونحن وحضرات الضباط وجميع عساكرنا فى غاية التيقظ والاستعداد لقهر العدو وطرده والله يؤيدنا بنصره فبشروا الذين تحت إدارتكم بتأييد من الله وحفظ عساكرنا المنصورة .

نص تلغراف وارد من قومندان فرقة رشيد وأبى قير إلى وكيل الجهادية بمصر فى ٢٠ شوال

بناء على ما ورد لنا من حضرة إبراهيم بك فوزى ميرالاى برنجى أو جنجى فرقة أنه فى يوم تاريخه الساعة ٩ حصلت مناوشة ما بين مقدمة عساكرنا وبين مقدمة العدو المخذولة جرى فيها إطلاق النار من الطرفين فتقهقر العدو وشوهد من قتلاه ثمانية أشخاص وارتد العدو خائبا وكان بمقدمتنا المنصورة إسماعيل أفندى رسمى البكباشى ومحمد أفندى مرعى الصاغ والحمد لله لم يحصل لعساكرنا أدنى أذى فنهنئكم بهذا النصر العظيم .

نص تلغراف وارد من طلبه باشا عصمت قومندان كفر الدوار إلي وكيل الجهادية بمصر فى (٢١ شوال) .

فى الساعة ٩ من يومنا هذا تحقق لنا مشاهدة استعداد العدو وتهيؤه للمحاربة فاستعددنا لمقابلته متوكلين على البارى جل شأنه وتهيأت طوبجيتنا وبيادتنا بغاية النشاط مهللين ومكبرين وفى الساعة العاشرة انتشب الحرب بمقذوفات الطوبجية من الطرفين وفى هذا الوقت تقدمت البيادة أمام الطوابى تحت مقذوفات مدافعنا فمن الجهة الشرقية للمحمودية كان صاحب العزة والتدبير مصطفى بك عبدالرحيم ومعه أورطة إبراهيم أفندى هيبة البكباشى ومن الجهة الغربية حضرة أحمد بك عفت مع الأورطة الأمامية حكمدارية سليمان أفندى ثعيلب وخلف هاتين الأورطتين أورط الامداد تحت قيادة البكباشية رزق أفندى حجازى وأحمد أفندى عبدالرحمن أفندى سليم وعبدالمجيد أفندى سعودى وتقدم جميع الضباط مع عساكر أورطهم بغاية النشاط واستمر إطلاق المدافع لغاية نصف ليلا[1] ولله در طوبجيتنا حيث أن مقذوفات المدافع كانت مؤثرة تأثيرا شديدا فى العدو بهمة بدوى بك منسى ومحمد أفندى حشمت البكباشية وباقى الصاغات واليوزباشية والملازمين والصف ضباط والعساكر بما أن المقذوفات كانت تشتت جموع العدو وقت سقوطها لأنه بوجودى ووجود عمر بك رحمى على رأس المدافع كنت آمرهم بإطلاق النار على الجهة الفلانية مثلا فالمقذوف يرسل إلى الجهة المطلوبة ويسقط فيها ويعمل عمله المخصوص به كما شاهدنا ذلك بالنظارات حتى أنى

(١) كذا فى النص .

نظرت إشارة على منزل بقرب الطابية فأمرت بضربه فسقطت عليه وهدمت منه جزءاً عظيما ولابد أن تكون أثرت تأثيرا جسيما فنهنئ سعادتكم بهذا النصر الذى هو نتيجة التوكل على الله سبحانه وتعالى ونهنئ أيضًا سعادتكم بوجود عساكر كالأسود الكاسرة فنسأل المولى سبحانه وتعالى أن يجعل النصر مقرونا بطالع سعادتكم الميمون بحرمة سيدنا محمد ﷺ آمين يا رب العالمين .

وفى ٢٣ شوال تحرر منا إلى وكيل الجهادية بما يأتى :

فى الساعة الثانية من هذا اليوم توجهت سرية مؤلفة من بعض عربان الفوائد والحرابى وتلاقت مع مقدمة العدو على مقربة من معسكره فأطلقت عليه النيران وأظهرت العرب(١) غاية الحماسة والشجاعة وصارت تصيح على العدو وتهجم عليه المرة بعد المرة هجوم الأسود وفى أثناء المناوشة تلاحق بهم عبدالرحمن أفندى محمود يوزباشى سوادى ببلوكين من الفرسان فزحفت العرب على العدو وطردته حتى أدخلته خيامه وهى تنادى عليه بالويل والثبور وتصيح فى وجهه بصوت عال وقد استمرت المناوشة بالنيران ثلاث ساعات قتل فيها من الإنكليز سبعة وجرح فيها من عرباننا واحد وحال انتشاب المناوشة قام كثير من العربان من مركز الجيش وتلاحقوا بإخوانهم ثم عاد الجميع يتسابقون على جيادهم ويترنمون بأناشيد الحماسة والمفاخرة بأنسابهم فهنأناهم بالسلامة وأثنينا على شجاعتهم بما هم أهله فبشروا الذين بطرفكم بنصر المولى وتأييد عباده المؤمنين(٢) .

وفى ٢٣ منه ورد تلغراف من وكيل الجهادية مرسل إليه من محمود أفندى سليم كما يأتى قال الوكيل : فيهذا اليوم وردت لنا إفادة من محمود أفندى سليم اليوزباشى المعين بدرب الغويبة والبساتين الموصلة إلى السويس يقول فيها أن «على الترك» الجاويش من سوارى مستحفظى مصر المقيم بنقطة تلاقى درب السويس قام من النقطة مع شيخ العرب جمعة علام من عربان الطرابين واثنى عشر من العربان وخرجوا للكشف جهة جبل عتاقة فى يوم الاثنين أول أمس وبعد كمونهم بالجبل نظروا نحو أربعين رجلا منهم عشرة من الإنكليز والباقى من الهنود وعربان الطور وخرجوا اليهم بجهة عجرود وأطلقوا النار على العدو فجاوبتهم نيرانه وبعد أن استمر إطلاق النار من الجبهتين مدة

(١) يقصد الأعراب

(٢) انظر سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٢٧ - ٢٣١ .

انهزم العدو بعد ما قتل من رجاله ١٥ عشر رجلا وبعون الله وقوته لم يصب أحد من رجالنا مضرة وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور وأن محمود أفندى أرسل أربعة عشر هجانا وخيالا من عربان العبابدة امدادا إلى الجاويش والعربان وقد كتبنا له تشكرا على همته وطلبنا منه أن يتشكر للجاويش والعربان وأن يستمر على التفاته وسرعة إرسال الامداد عند اللزوم قياما بواجب مأموريته فنهنئ سعادتكم بهذا الفوز والنصر العظيم وارتداد العدو منهزما فى كل محل حل به فابشروا بنصر الله وتأييد المؤمنين .

وفى ٢٤ شوال تحرر تلغراف من على باشا فهمى لوا برنجى و٢ جى بياده فى القصاصين إلى وكيل الجهادية بمصر وهذا نصه .

فى صباح يومنا هذا الساعة ١١ حصلت مناوشة ضرب نار بين داوريتنا وداورية العدو والضرب مستمر إلى الآن وضرب النار ابتدأ من داوريتنا وعلى الله النصر .

ومنه إليه

المناوشة التى أعرضنا لسعادتكم عنها مكثت ساعة وانهزم العدو بعون الله وعاد إلي معسكره ناكصا على عقبيه فنبشر سعادتكم بالنصر المبين .

وورد من طلبه باشا قومندان كفر الدوار الينا فى ٢٤ شوال وهذا نصه :

أعرض لسعادتكم أن أحوالنا جيدة وعلى ما يرام هذا وقد جاءنا من أخبار اسكندرية من المتواردين منها أن اثنين من الانكليز أحدهما قبودان والآخر ملازم أول أرادوا الفرار والحضور للجيش المنصور وأسباب ذلك هو التضرر الحاصل لهم من مشاق المحاربات وكثرة الموتى فلما تركا مركزهما موجهين وجهتيهما إلى هنا وقطعا مسافة عظيمة لحقهما آخرون وأطلقوا عليهما الرصاص فقتل أحدهما وأخذوا الثانى وسجنوه وأن عساكرهم متضررة بهذه الكيفية .

وأخذنا ايضا أنه فى إحدى محاربات هذا الطرف ضرب أحد بكباشية الإنكليز نفسه برصاصة فمات وسبب ذلك انهزام عساكره وخروجهم عن طاعته فى وقت المحاربة ولهذا بادرت بتبشر سعادتكم بخذلان هذه الطائفة الباغية نسأل الله أن يتم النصر والظفر بحرمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ آمين .

وفى ليلة ٢٤ شوال ركب عربان الشرقية من قبائل النقيعات والطميلات والعبابدة وساروا إلى جهة العدو الساعة ٨ تحت حكمدارية على بك عصمت مأمور العربان ومعهم عبدالحميد أفندى اليوزباشى بأربعين من السوارى ومازالوا يتقدمون إلى جهة العدو حتى تلاقوا بمقدمته وأطلقوا النار عليه حتى تأخر عن مركزه وفى شروق الشمس خرج اليهم العدو بقوة مركبة من سوارى وبياده وطوبجية واشتعلت النار من الجانبين ساعة ثم هجم العرب هجوم الأسود وأظهروا من الشجاعة والبسالة ما أمكنهم به طرد الأعداء الكثيرى العدد عنهم ثم اقتفوا أثرهم يضربونهم ويطردونهم حتى قتلوا نحو مائة وبددوا شمل الآخرين واغتنموا منهم نحو ٥٠٠ متر من سكك الطربيل وبعض أدوات حربية واستمرت هذه المناوشة نحو ست ساعات ثم حضر على بك عصمت وعبدالحميد أفندى حمدى ومشايخ العربان وهم محمد حسن البعلى وإبراهيم أبو نصر الله وخليل أبو بغدادى والحاج حسن الأعصر والعسكر فرحين مسرورين بما حازوه من النصر وبمعونة الله تعالى لم يصب أحد من فرسان العربان ولا من السوارى فشكرناهم على ما أبدوه من الحمية والثبات وحررنا إلى وكيل الجهادية بذلك فى ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ .

وفى ٢٤ شوال ورد تلغراف من عبدالعال باشا حلمى قومندان دمياط وهذا نصه .

إن عساكر الإنكليز الموجودين فى بورت سعيد بعد واقعة يوم الاثنين أظهروا العصيان وأبوا المحاربة لشدة ما أصابهم من الجيوش المصرية المنصورة ولما نظروه من كثرة قتلاهم فهددهم الرؤساء بالإعدام فأصروا على الفرار والالتجاء إلى عساكرنا الموجودين بطابية الجميل وبالفعل هرب منهم أحد عشر رجلا وقصدوا الطابية فأدركهم العدو فى الطريق وأعدمهم بالرصاص بمشاهدة من كان بتلك الجهة وحيث أن هذه الدولة ضعيفة الرجال فقد أخذت فى استئجار أناس من نصارى الشوام واليونان والطليان للاستعانة بهم على محاربتنا فعندما يحضرون ويرون قتلى الإنكليز يتمكن الرعب منهم ويلقون أسلحتهم ويفرون .

وفى ٢٤ شوال ورد لنا تلغراف من كيل الجهادية بمصر يقول فيه :

الحمد لله الذي سخر لسعادتكم النصر والتأييد فى جميع مواقعنا العسكرية القريبة والبعيدة وقد افتخرنا بتلغراف عطوفتكم المحقق لما أبداه شجعان عرباننا وفرسان سوارينا تحت قيادة على بك عصمت من الشجاعة والبسالة وقد أعلنت ذلك لجميع الضباط

والعساكر الموجودين بمركز مصر فدخل عليهم السرور فوق ما هو حاصل لهم وبالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن جميع الضباط والعساكر بل والمستوطنين بمصر أهنئ سعادتكم بهؤلاء الشجعان والفرسان وأهنئ حضراتهم أيضًا بمرافقة عطوفتكم وما نالوه من العز والفخر .

وفى ٢٤ شوال صار عقد مجلس تحت رياستنا حضرة راشد باشا حسنى[1] قومندان الخط الشرقى وعلى باشا فهمى وجميع أمراء الآلايات الموجودين بمركز التل الكبير ومحمود سامى باشا قومندان مركز الصالحية وتقرر فيه الهجوم على الأعداء بمركز القصاصين حيث اتخذ معسكر للإنكليز حشدوا إليه جميع قواهم الحربية فكانوا يزيدون عن ثلاثين ألف وفيهم الدوق (اف كنوت) ثالث إنجال الملكة وأن يكون خط الحرب على هيئة نصف دائرة تحيط بالعدو بجناحيها بحيث يكون محمد أفندى الرملاوى بأورطته فى الجانب الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة سوارى ومدفعين وجانب من العربان وفى الجانب الأيسر للترعة المذكورة أجى آلاى بياده حكمدارية أحمد بك فرج وخلفه ٦ مدافع وفى القلب الاى عيد بك محمد يتقدم بطاريتين كروب ١٢ مدفع وخلفه بطارية ٦ مدافع الجميع تحت قومندانية على باشا فهمى والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت وفى الجناح الأيسر على بك يوسف بالاى وخضر بك خضر ومعه أورطتان من السودان وبطارية من ٦ مدافع وست أورطة من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار وقومندان الجيش العمومى راشد باشا حسنى ، وأن يقوم قومندان مركز الصالحية محمود باشا سامى بجيشه المركب من الأسلحة الثلاثة وقدره ١٢ ألف ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر ويقف علي يسار جيش مركز رأس الوادى ويحيط بميمنة العدو والقوة التي على يمين الترعة تحيط بميسرته والعرب يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة وبذلك لايتمكن العدو من الفرار .

وعمل بهذا الترتيب رسم بطرف أركان حرب بالجيش واعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل على موجبها وفى المثلث الأخير من ليلة ٩ السبت الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ و٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ قام الجيش على هذا الترتيب فلما وصل قريبا من العدو

---

(١) سبق التعريف به .

أخذ كل محله على خط النار ولكن العدو كان عالما بما قر الرأى عليه فبادر جيشنا بإطلاق المدافع واشتبك القتال بين الجيشين . وأما جيش مركز الصالحية فإنه تأخر عن الميعاد المحدد له ولما قرب من الجيش كان العدو يتهيأ لقتاله فوجه اليه بطارية مدافع وأطلق عليه مقذوفاتها قبل أن يصل إلى محله فتشتت الجيش المذكور وولى الأدبار فمنهم من عاد إلى الصالحية ومنهم من حضر إلى مركز رأس الوادى وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبتوا ثبات الأبطال إلي آخر النهار حتى إذا جرح راشد باشا حسنى فى قدمه برصاصة وعلى باشا فهمى برصاصة فى ساقه وخسر كل من الجيشين خسارة كبرى من ضرب المدافع والبنادق التى كانت مقذوفاتها كالمطر فى الميدان وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشبت بيننا وبين الإنكليز إذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهم نادر المثيل ثم تراجع الجيشان بانتظام(١) .

ولما وصل الجيش أرسلنا المجاريح فى قطر مخصوص إلى العباسية بمصر لمعالجتهم ومعهم القائدين العظيمين راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى(٢) ثم طلبنا على باشا الروبى قومندان مريوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى فحضر فى عصر يوم الثلاث الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩ و١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتوجه توا إلى المقدمة فأمر بانتقال الاى على بك يوسف وعبدالقادر بك عبدالصمد من الجناح الأيسر الذى كان مستحكما مائلا إلى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى المعسكر من هجوم العدو ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من الترعة الحلوة إلي الجهة الشرقية وأمرهما باتخاذ دروة خفيفة من التراب فى أثناء الليل فعمل عبدالقادر بك عبدالصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان فى نهاية الجناح الأيسر وأما على بك يوسف فانه جمع عساكر آلايه فى هيئة القول ولم يجر عمل شيء يقيهم من مقذوفات العدو إذا هجم على الجيش وتقدم إحمد بك عبدالغفار وعبدالرحمن بك حسن بعساكر السوارى إلى الأمام على بعد الفين متر ليمنعوا تقدم العدو إذا أراد الهجوم على معسكرنا ولكن وامصيبتاه خاب الأمل فيهما .

---

(١) فى هذه الموقعة حاول المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسنى (المعروف بأبى شنب فضة) الهجوم على مواقع الإنجليز ، واحتدم القتال حوالى ثلاث ساعات ، وانتهت المعركة بتراجع المصريين بعد أن كادوا يوقعون بالجيش الإنجليزى . الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٢٨ .

(٢) بعد موقعه القصاصين أقلت القطر المخصوصة الجرحى إلي العباسية ومنهم القائدان راشد باشا حسنى واستدعى وعلى باشا الروبى ليتولى قيادة جيش رأس الوادى .

الفصل الثالث عشر

واقعة التل الكبير(١)

فى يوم الأربع الموافق ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ و١٣ سبتمبر ١٨٨٢ كنت فى صلاة الفجر إذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة فخرجت ونظرت فوجدت ضرب النار على طول خط الاستحكام ورأيت بطارية طوبجية سوارى على مرتفع من الأرض يبعد عن الخيمة التى كنت فيها بنحو ستمائة متر وصبت مقذوفاتها على مركزنا العمومى وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك إلا الأهالى المتطوعين مع الشيخ محمد عبدالجواد وأخيه الشيخ أحمد عبدالجواد وجابر بك من بندر ببا بمديرية بنى سويف وكانوا نحو ألفين فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ودهشوا فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ولم يجد ذلك نفعا بل تفرقوا فرارا فجاء ضابط من طرف على باشا الروبى القومندان الجديد يخبرنى باتخاذ مركز آخر ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحم بالخيل والجمال والعساكر متشتتين ومولين ظهورهم للعدو فذهبت إلى القنطرة التي على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار فألقوا بأنفسهم فى الترعة وسبحوا إلى البر الغربى وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو وأذكرهم بالشرف الإسلامى والعرض والوطن فما كان من سميع ولا بصير فذهبت إلى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ مركزا لمنع العدو من الوصول إلى القاهرة وكان معى أخى السيد صالح عرابى وخادمى محمد إبراهيم وجاويش بروجى يدعى عطية محمد فقط وكانت مقذوفات الطوبجية السوارى تتساقط علينا من كل جهة حتى تركنا حدود التل الكبير فلما وصلت إلى بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى اليها(٢) فسألته عنما(٣) دهاهم فلم يزد على قوله أنه خذلان وكان على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا فأرخينا للخيل اعنتها حتى وصلنا محطة

---

(١) حدثت شرق محطة التل الكبير على الضفة اليسرى لترعة الإسماعيلية ، ولم يكن عرابى قد أتم خطوط الدفاع قبل نشوب المعركة وقد زحف الجنرال ولسلى علي التل الكبير في أحد عشر الفا من المشاة والفين من الفرسان ومعه ستون مدفعا ، والشىء اللافت للنظر أن يقطع الجيش الإنجليزى المسافة بين القصاصين والتل الكبير وهى تبلغ خمسة عشر كيلو متر دون أن تصادفهم طلائع المصريين . انظر الرافعى : الثورة العرابية من ٤٣٢ - ٤٣٣

(٢) هرب على باشا الروبى قائد منطقة التل الكبير إلى بلبيس حيث فوجىء عرابى بوجوده هناك .

(٣) صحتها عما .

انشاص فوجدنا هناك قطارا فركبناه وذهبنا إلى القاهرة لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الاعداء قبل وصولهم إليها(١) .

(أسباب هذا الخذلان)

وأسباب هذا الخذلان هو أنه فى خلال تلك الأيام كانت الرسائل تبعث من قبل الخديو إلى كبراء الضباط بالوعد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الإنكليزى لم يحضر إلى مصر إلا بأمر السلطان خدمة للخديوى وتأييد السلطنة(٢) وكانت توزع تلك الرسائل بواسطة محمد باشا أبى سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه الذين هم من الإنجليز فى الإسماعيلية بأمر الخديوى وبواسطة الجواسيس من (المصريين) كأحمد عبدالغفار عمدة تلا والسيد الفقى العضوين فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية فأثروا على قلوب على بك يوسف ٣ جى ميرالاى وأحمد بك عبدالغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه وعبدالرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى الاى سوارى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية ، واستمر ذلك إلى أن كانت ليلة الأربع ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ أشاع على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الإنكليز لايخرجون فى هذه الليلة من مراكزهم(٣) ولذلك لم يفعل ما أمره به على باشا الروبى من عمل خط استحكام من التراب وجمع عساكره فى نقطة واحدة فى شكل قول .

وكانت العساكر الإنكليزية قد سارت من أول الليل وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا إلى الخديوى بطرف الإنكليز وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق واستمروا سائرين إلى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار وعبدالرحمن بك حسن فبدل أن تناوش العدو وتوقف سيره رجعت أمامه كأنها تقوده إلى أن بلغوا محل الاى على بك يوسف الذي كان خاليا من عساكره فمروا بين العساكر بلا مانع يمنعهم وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والإمام وأوقعوا بالجند على حين كان راقدا فدهشت العساكر

(١) كان كل هم عرابى أن يصل إلى القاهرة قبل وصول خبر الهزيمة حتى يهيىء وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد .

(٢) كان من أسباب الهزيمة أيضًا المنشورات التى بعث بها الخديو إلى ضباط جيش عرابى وجنوده وكانت مليئة بالوعد والوعيد .

(٣) أطلق على يوسف خنفس شائعة بأن البريطانيين لم يغادروا القصاصين فى الليلة التي كانوا يستعدون فيها للهجوم على التل الكبير فلم يأخذ عرابى استعداده ، بل انصرف إلى حلقات الذكر .

وتولاها الانفعال حيث رؤوا ضرب النار عليهم من خلفهم وأمامهم برنجى الاى بياده حكمدارية أحمد بك فرج فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لأنفسهم إلا آلاى محمد بك عبيد[1] وآلاى عبدالقادر عبدالصمد فإنهم ثبتوا فى مراكزهم وقاتلوا أعدائهم حتى النهاية فاستشهدمنهم من استشهد وجرح من جرح وصار الميدان ظلاما من دخان البارود واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة فى تلك الصحراء الواسعة واشتعلت النار بعربات السكة الحديدة التي بها الذخيرة الحربية وما جاورها من عربات المؤونة من مقذوفات الطوبجية السوارى التى عمدت إلى ضرب المركز العمومى .

وهكذا تم استيلاء الإنكليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره وبه كانت نهاية الحرب والخسارة عظيمة بسعى الخديوى ومن انحاز اليه من المصريين الذين نشأوا تحت ضغط الاستبداد واستمرؤوا عيش الاستعباد وبمساعدة المنافقين من عمد وأعيان المنوفية وعرب الهنادى بالشرقية الذين كافأهم الخديو خصوصا الشيخ حمد أبو سلطان وأخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية فإن الخديو أقطعهم خمسة آلاف فدان فى رأس الوادى مكافئة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فى خيراته .

وذكر فى تاريخ مصر للمصريين بخصوص واقعة التل الكبير ما يأتى ٢٤٧ صحيفة جزء ٥ فى مساء ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ ورد على الخديو تلغراف من سلطان باشا أن الجيش الإنكليزى قد استعد للهجوم على العصاة فى التل الكبير ثم ورد منه تلغراف آخر من الإسماعيلية يعلن أن الإنكليز هجموا على التل من كل ناحية وصوب فى الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ (على الاصطلاح الافرنكى) بعد منتصف الليل وأن العرابيين لم يقفوا أمام الإنكليز إلا عشرين دقيقة استولى الإنجليز بانقضائها على التل فغنموا أربعين مدفعا وقتلوا ألفى رجل وأسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم أخذوا يتعقبون الجند المنهزم[2] وذكر أن هذا مفاد التلغراف بشرحه ومعناه أثبتانه توطئة لما سيجىء تفصيله

(١) استحق محمد عبيد لقب البطولة بدفاعه المجيد فى التل الكبير واستشهاده فى تلك الواقعة ، فقد قاتل الإنجليز قتالا مجيدا على رأس آلايين من الجنود حتي قتل معظمهم وقتل هو معهم فختم حياته بصفحة مشرفة من صفحات البطولة فى تاريخ الثورة العرابية ويلى محمد عبيد فى البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذى أصلى الإنجليز نارا حامية بمدافعه .

الرافعى : الثورة العرابية ص ٥١١ - ٥١٢ والخفيف : المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) كان من أبرز أسباب هزيمة العرابيين جهل معظمم قادتهم بالعلوم العسكرية وعدم إلمامهم بالثقافة العامة مما أثر على نضجهم الفكرى وفى عدم قدرتهم على اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب .

أخذا عن تلغراف وارد من الجنرال ولسلى فى مساء ١٣ سبتمبر ومقدمة لما تجمع لدينا من التفاصيل الواردة على السنة الرواة ممن نقلوا الينا البيان الآتى فى شأن انحلال جيش التل الكبير هزيمته وهو :

قبل أن تتحول القوة الإنكليزية إلى الخط الشرقى ببضعة أيام ورد على عرابى فى كفر الدوار بعض نسخ من صحيفة الجوائب وفيها صورة البياننامة السلطانية المتضمنة عصيان عرابى على أمير المؤمنين إلى غير ذلك مما تقدم إيراده فى الصفحات السابقة فعندما وقف عرابى عليها وأتى على آخرها بلغ منه الغيظ مبلغا عظيما وزال ما كان يعتقده من ميل السلطان إليه ورضاه عنه فاستدعى فى الحال بعبدالله نديم وبعض خواصه وأطلعهم على نص ذلك البيان السلطانى ومنشور الصدر الأعظم سعيد باشا) واستشارهم فيما يجب أن يفعله فى مثل تلك الحال فأشار عليه نديم بنشرها فى صحيفة الطائف والرد عليها مع الاستمرار على المدافعة والذود عن الوطن حتى فى الحالة التى ترد فيها عساكر تركية لمحاربتهم فلم يستحسن عرابى نشرها[1] وإظهارها للناس خشية أن تحول القلوب عنه وتحل رابطة اجتماع الأمة على ولائه خصوصا وأن عامة الناس ومعظم الضباط وكبار الجند كانوا معتقدين أن هذه الحرب لم تنشب إلا للمحافظة على حقوق السلطان فى القطر المصرى (بلى والمحافظة على الوطن العزيز) فأمرهم بكتم هذا الأمر وقال : ربما كانت هذه البياننامة» مبنية على سياسة من السلطان اضطرته إلى إصدارها مراعاة لظروف الأحوال والخوف من ظهور المسألة الشرقية فى مظهر يصعب استدراكه ويعز تلافيه أ . هـ .

فبناء على ما تقدم حجبت هذه البياننامة» عن أعين الناس وافهامهم كأن لم تكن شيئا مذكورا ثم ظلت تحت برقع الاحتجاب إلى أن طرأ على الأعمال الحربية ما أوجب انتقالها إلى الخط الشرقى فدخلت الدوارع الإنكليزية فى الترعة[2] وحدثت واقعة المسخوطة[3] وواقعة القصاصين وأمست الطريق بين الصالحية (وكان حكمدارها إذ ذاك

(١) كان من رأى النديم أن توزيع المنشور سرا سيكون رد فعله أسوأ مما لو نشر فى الصحف وتم الرد عليه ولكن عرابى لم يستحسن ذلك . عبدالمنعم الجميعى : عبدالله النديم ص ١١٥ .

(٢) لو أن عرابى بادر عندما نشبت الحرب إلى سد القناة لعجز الجنرال ولسلى عن التقدم ، وقد لعب دلسبس فى هذه المسألة دور التغرير حتى فوت على العرابيين سد القناة . الرافعى : الثورة العرابية : ص ٤١٥ .

(٣) أسر فيها محمود فهمي المهندس حين أرسله عرابى لسد القناة .

محمود سامي) وبين التل الكبير خالية من الحامية (ما عدا قبيلة عربان الهنادى التى كانت مائلة إلى الخديو باطنا) فبذلك تمكنت جواسيس الإنكليز (وكانوا من المصريين) من الدخول فى وسط جيش التل الكبير وتوزيع نسخ كثيرة من صورة البياننامة) الآنفة الذكر (اى المنشور السلطانى) على كبار الضباط وصغارهم فلما اطلعوا عليها ضعفت عزائمهم ووهنت قواهم فعم الاختلال وساد على عقولهم الارتباك .

ولما علم عرابى بذلك جمع مجلسا حافلا مؤلفا من جميع الضباط وتلى عليهم البياننامة المشار إليها ثم طلب منهم ابداء آرائهم فى هذا الشأن فكان من رأى أكثرهم وجوب الاستمرار على الدفاع . أما الباقون فرأوا أن التسليم أسلم وبعد ذلك انفض المجلس على نية الدفاع بغالبية الاراء مع أن الجميع كان بودهم أن يستسلموا وكانوا يحذرون من مناوأه السلطان ويمقتون الخروج عن طاعته وفى خلال ذلك كانت الرسائل تبعث من قبل الخديوى إلى كبراء الضباط بالوعد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الإنكليزى لم يرسل إلى مصر إلا بأمر السلطان خدمة للخديو وتأييدًا لسلطته واستمر ذلك إلي أن كان يوم الثلاثاء الواقع فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ففيه كتب على بك يوسف أميرالاى المقدمة إلى عرابى بأنه قد تحقق أن العدو لا يخرج فى هذه الليلة كما أخبر بذلك الجواسيس(٢) .

وكانت العساكر الإنكليزية قد سارت من أول الليل لا تفتر لها عزيمة ولا تشكو مللا وفى مقدمتها بعض «ضباط أركان حرب المصريين» الذين انحازوا إلى الخديو وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق ما بين الصالحية والتل الكبير واستمروا سائرين إلى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل فأخلى لهم على بك يوسف(١) الطريق ومروا بين العساكر لا راد يردهم ولا مانع يمنعهم فأطلقوا النار على الاستحكامات وأوقعوا بالجند الراقد فالقت الأجناد أسلحتها وفرت طالبة لأنفسها النجاة .

---

(١) نجحت جبهة الخيانة فى تنفيذ مخططها فاتصل الخديو وسلطان باشا بالضباط على يوسف ووعداه بالنياشين حتى أرسل لهم أماكن توزيع قوات عرابى وتحركاتها مما ساعد الإنجليز فى هجومهم على العرابيين . انظر محافظ الثورة العرابية محفظة ٤١ ، وعبدالمنعم الجميعى الثورة العربية ص ٧١ .

(٢) على هذه الإفادة أصدر عرابى أمره إلى الجيش بالاستراحة فى تلك الليلة والإمساك عن الأعمال الحربية ، وعزم الشيخ عبدالجواد على إحياء تلك الليلة بالأذكار . سليم النقاش : مرجع سابق جـ ٥ ، ص٢٤٩ .

واستيقظ عرابى من نومه على دوى المدافع[1] وخرج من خيمته لاستكشاف الخبر فارتاع وتولاه الانذهال لما علم أن الإنكليز استولوا على الاستحكامات ورأى الجنود المصرية منهزمة لايلتفت بعضها إلى بعض فأخذ يناديهم بعالى صوته ويحرضهم على الرجوع والثبات فى ساحة القتال فما سمعه سامع ولا لباه مجيب بل كان كمن يضرب فى حديد بارد أو ينفخ فى رماد ، وقد ظن الضباط والجند أن العساكر الهندية جنود عثمانية مرسلة من قبل السلطان فكان ذلك من بواعث هزيمتهم والقائهم للأسلحة بدون قتال .

ولما يئس عرابى من إعادة الحماسة إلى رؤوس جنده ورأى خيمته طائرة فى الهواء أثر قنبلة أصابته علم أن الخطب جلل وقد حاولت فرقة من سوارى الإنكليز إدراكها فما أدركها غير ما كان يثور وراءها من الغبار[2] .

وهكذا تم استيلاء الإنكليز على التل الكبير ومهماته وذخائره وبه كانت نهاية هذه الحرب المشئومة .

وهذا معرب التلغراف الذى ورد على الخديو بالاسكندرية من الجنرال ولسلى مؤرخا فى الساعة ١١ والدقيقة ٣٠ «على الاصطلاح الافرنكى) من صباح الثلاثاء الواقع فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

قال : «فى ليل أمس أمرت جيشى بالاستقرار فى القصاصين تحت الخيام فاستقر إلى الساعة الواحدة والدقيقة ٢٠ بعد منتصف الليل مستعدًا للسير . وحينئذ زحفت على التل الكبير بقوة ١١٠٠٠ من المشاة المسلحين بالحراب و٢٠٠٠ من الفرسان متقلدين السيوف و٦٠ مدفعا على عزم أن نهجم على التل عند بزوغ الفجر .

وكان عرابى ضاربا فى ذلك الموقع الحصين بقوة عشرين ألف مقاتل من المشاة و٢٥٠٠ من الفرسان و٦٠٠٠ من العربان و٧٠ مدفعا .

وقد سرت ليلا فقطعت مسافة الستة أميال الكائنة بينى وبين العصاة من غير أن ألقى مزعجا وكان مع فرسانى فى ميمنة الجيش بطاريتان وفى الميسرة فرسان بأمرة

(١) يذكر سرهتك أن عرابى جلس مع الفقراء فى صيوان يذكرون الله إلى آخر النصف الأخير من الليل وعند الفجر ناموا جميعا ولم يستيقظوا إلا على اطلاق المدافع والبنادق ، انظر حقائق الأخبار ص ٤٠٩ .

(٢) بعد أن تحطمت متاريس العرابيين فى التل الكبير ركب عرابى فرسا تاركا ميدان القتال وتبعه عبدالله النديم وقد حاول فرسان الإنجليز تتبعهما والقبض عليها فما استطاعوا عبدالمنعم الجميعى : عبدالله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ص ١١٧ .

الجنرال (غراهم) وفى مقدمة الجيش وخلفه فرسان بامرة نجل الملكة (الدون أف كنوت) وكان عن يسار الخيالة سبع بطاريات ٤٢ مدفعا على خط واحد ومعهم آلايات العساكر الجبلية وكان فرسان الميمنة مأمورين بقطع خط الرجعة على العصاة عند طلوع النهار.

وقد جعل هذا الترتيب مبنيا على نية الهجوم كرة واحدة على التل الكبير وكان كذلك فإننا اندفعنا عليه بثبات وبأس وقد امتاز فى البسالة آلاى الملكة الارلاندى وعلى الخصوص فى الكيفية التي استولى بها على مهمات العصاة.

وقد استولينا على عدة قطارات وكميات وافرة من المؤونات والمهمات الحربية أما المدافع التى غنمناها فلا أعلم عددها إلى الآن ولكنها كثيرة».

ولقد رأينا العصاه منهزمين ألوفا ساعة هجوم الفرسان عليهم فإنهم ألقوا اسلحتهم من أيديهم وشمروا عن ساق الفرار بعد أن نكبوا بخسائر جسيمة.

وجرح منا الجنرال ولسن جرحا خفيفا والكولونيل ريتشرسون جرحا بليغا وأصيب من الجبلين الماجور كولفل، واندرودر وسمرفيل، وقتل القائمقام. ادوار، وجرح الكولونيل سترلن وأصيب الطبيب كانن برصاصة جرحته جرحا خفيفا والكولونيل بلفور، برصاصة جرحته فى رجله وقتل السير جان هولس، وجرح أربعة غير هؤلاء من الضباط. أما عرابى فقد فر إلى الزقازيق علي جواد سريع العدو.

وقد حدث بعد الواقعة أن توجه فرساننا إلى الزقازيق وسيلحق بهم الجبليون فى مساء هذا اليوم. فقطعت الترعة الحلوة من جهات متعددة ولم تصب السكة الحديدية بضرر أ. هـ.

ثم ورد منه بعد ذلك تلغراف يقول فيه بلغ عدد المدافع التى غنمناها من ٥٠ إلى ٦٠ مدفعا وفى الساعة الرابعة من مساء اليوم (١٣ سبتمبر) دخلنا الزقازيق بعساكر الهند واستولى الجنرال. ماكفرسون قائد الجيوش الهندية على خمسة قطارات ملآى بالذخائر الحربية والمؤن.

أهالى الزقازيق مبتهجون فرحون بزوال الضيق. فر عرابى إلى مصر(١).

---

(١) يقصد القاهرة.

حل فرساننا فى بلبيس وقد عزمت على إرسال المشاة اليها بقصد أن أدخلها غدًا .

فى الأمل أن أستولى غدًا (١٤ سبتمبر) على بنها العسل وإذا لم ألق صعوبة ما تقدمت بالفرسان إلى قليوب ومنها أنطلق إلى مصر[١] . أ . هـ .

ولما ورد على الخديو خبر استيلاء الإنكليز على التل الكبير سر سكان الاسكندرية ووفد الذوات والأجانب على الخديو يهنئونه بالفوز والنصر وصدحت الموسيقى الخديوية بانغام التبشير بالظفر وعزفت بالسلام الخديوى أمام سراى الحقانية فرفعت العساكر الإنكليزية السلاح تعظيما وإجلالا وصرخ الأوربيون بقولهم فليحى توفيق الأول ثم ختم ذلك بالدعاء للخديو وملكة الانجليز والجنرال ولسلى الايرلندى والدولة الإنكليزية وتفرق القوم بعد ذلك .

---

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٤٧ - ٢٥٠ .